مشكلة الشك عند الجاحظ دراسة تحليلية نقدية

د/علاء محمد السيد علي
مدرس الفلسفة الإسلامية
كلية الآداب– جامعة العريش
dr.alaaalsayed60@gmail.com

الملخص:

إن آراء الجاحظ من أقدم الآراء التي تؤصل لمنهج الشك في التراث الكلامي والفلسفي والأدبي عند العرب، فهو صاحب المصنفات العديدة التي تكشف عن شيوع الروح الفلسفية والمنهجية في ثناياها، ففكره قائم على دقة الملاحظة وعمق النظر والتحليل والمقارنة والنقد، وكشف المتناقضات والمغالطات في الأفكار المطروحة عليه بعد تأنٍ وتمحيص، والشك عنده يمثل آلية علمية تقوم على أسس موضوعية دقيقة، فهو منهج عقلي يقوم على خطوات محددة تهدف إلى عدم التسليم المطلق بالأحكام المسبقة دون برهان قوي، ورفض الأجوبة التي لا تقوم على معايير محددة.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة مشكلة الشك عند الجاحظ، من خلال الإجابة على الأسئلة الآتية: – هل ارتقى الشك عند الجاحظ ليصبح منهجًا فلسفيًا؟

– هل يمكن اعتباره نظرية تشتمل على مجموعة من القضايا التي تشكل فيما بينها نسقًا معرفيًا يقود إلى بناء عدد من الاستنتاجات التي تدعمها معطيات الملاحظة والمشاهدة والتجريب والمقارنة والنقد والتفسير..؟.

–هل اشتمل الشك على خطوات واضحة طبقها الجاحظ عند دراسته لجوانب محددة في فلسفته؛ فانتقل بعملية الشك من النظرية إلى التطبيق؟.

وقد اعتمدت في هذا البحث على عدة مناهج تناسب طبيعته، وهي المنهج الفلسفي التحليلي النقدي، والمنهج التاريخي، والمنهج اللغوي، وقسمت هذه الدراسة إلى ملخص، ومقدمة ضمنتها التعريف بموضوع البحث والهدف منه والأسباب التي دفعت الباحث لبحثه ومنهج الدراسة، وأربعة مباحث هي:

الأول: أثر الإسلام في تشكيل النظر العقلي عند الجاحظ.

الثاني: أثر ثقافة العصر العباسي في تكوين الاتجاه العقلي عند الجاحظ

الثالث: العقل عند الجاحظ.

الرابع: إشكالية الشك عند الجاحظ بين النظرية والتطبيق

ثم ذكرت خاتمة البحث ونتائج الدراسة، والمصادر والمراجع مرتبة كما جاءت في المتن والهوامش.

الكلمات الدالة:

المعتزلة – الجاحظ– الشك – اليقين – المعرفة –النقد –الجدل.

The problem of doubt At Al jahiz

Abstract:

Al-Jahiz's views are among the oldest opinions that root for the method of doubt in the verbal, philosophical and literary heritage of the Arabs, as he is the owner of numerous works that reveal the prevalence of philosophical and methodological spirit in its folds.

After deliberation and scrutiny, skepticism represents a scientific mechanism that is based on precise objective foundations, as it is a mental approach based on specific steps aimed at not completely accepting prejudices without strong proof, and rejecting answers that are not based on specific criteria.

This research aims to study the problem of suspicion by Al-Jahiz, by answering the following questions: - Did Al-Jahish's suspicion rise to become a philosophical approach?.

- Can it be considered a theory that includes a set of issues that constitute among them a knowledge system that leads to building a number of conclusions supported by the

data of observation, observation, experimentation, comparison, criticism and interpretation ..?.

-Did the suspicion include clear steps that Al-Jahiz applied when studying specific aspects of his philosophy? So he moved the process of doubt from theory to practice?.

It has adopted in this research several methods that suit its nature, namely the philosophical analytical approach, the historical approach, and the linguistic approach, and this study was divided into a summary, an introduction that included the definition of the research topic and its aim and the reasons that led the researcher to his research and the study method, and four sections are:

The first: the effect of Islam on shaping the mental view of Al-Jahiz.

The second: The effect of the Abbasid culture on forming the mental direction of Al-Jahiz.

The third: the mind when the bigeye.

Fourth: The problem of doubt at Al-Jahiz is between theory and practice.

Then I mentioned the research conclusion and the results of the study, the sources and references are arranged in the text and margins.

Key words:

Mu'tazilites - Al-Jaheth - Doubt - Certainty - Knowledge - Criticism - Controversy.

مقدمة:

تُعتبر آراء الجاحظ[١] من أقدم الآراء التي تؤصل لمنهج الشك في التراث الكلامي والفلسفي والأدبي عند العرب، فهو صاحب المصنفات العديدة التي تكشف عن شيوع الروح الفلسفية والمنهجية في ثناياها، ففكره قائم على دقة الملاحظة وعمق النظر والتحليل والمقارنة والنقد، واللجوء إلى كشف المتناقضات والمغالطات في الأفكار المطروحة عليه بعد تأنٍ وتمحيص، والشك عنده يمثل آلية علمية تقوم على أسس موضوعية دقيقة، فهو منهج عقلي يقوم على خطوات محددة تهدف إلى عدم التسليم المطلق بالأحكام المسبقة دون برهان قوي، ورفض الأجوبة التي لا تقوم على معايير محددة.

مفهوم الشك لغة واصطلاحًا

إن الشَكُّ "نقيض اليقين وجمعه شكوك"[٢]، وهو التردد العقلي بين رأيين أو أكثر دون ترجيح عقلي لأحدها على الآخر بسبب تساوي المشكلات والآراء والأدلة، التي يبحثها العقل، في العيوب والمميزات من حيث قوتها أو ضعفها، أي أن الشك (Doubt) "حالة ذهنية تعبر عن التذبذب العقلي بين التصديق والإنكار، ويدل على عدم ثقة الباحث – أو قلة اقتناعه العقلي– ببعض الحقائق أو الدوافع أو القرارات المرتبطة بموضوعٍ ما، وقد ينتج عن هذا الشك العقلي إرجاءٌ لقرارٍ ما، أو نبذُ تصرفٍ ما، خوفًا من ارتكابِ خطأٍ في التفكير، أو إضاعة فُرصٍ ما"[٣]، أي أن الشك يدفع الباحث إلى التوقف العقلي عن إصدار الحكم وإعادة التفكير مرة أخرى في ذات المسألة والمسائل المرتبطة بها بحثًا عن الحقيقة.

إن العقل[٤] باعتباره أساس التكليف والمسئولية والمعرفة، يمنع الإنسان من الاستسلام لمعطيات الحواس دون تحقق من صحة المعلومات الناتجة عنها، لذلك يعتبر الشك وسيلة ضرورية لمعرفة الحقائق اليقينية وتأكيد صحتها والدفاع عنها.

مميزات المنهج عند الجاحظ

آمن الجاحظ بأهمية المنهج العقلي في مناقشة الآراء المختلفة، وآمن بمشروعية الاختلاف والإستدلال العقلي والحجاج المنطقي، وهذا الاستنتاج تؤكده آرائه النظرية التي سعى إلى اختبارها وتطبيقها على عدد من الأخبار والروايات في كتابه "الحيوان"، وكتابه "البيان والتبيين" وغيرهما.

واتبع الجاحظُ في كتبه ورسائله أسلوبًا بحثيًا يوصف بإنَّهُ منهجُ بحثٍ علميٍّ مضبوطٌ ودقيقٌ، يبدأ بالشَّك ليُعْرَض على النَّقد، ويمرُ بالاستقراء على طريق التَّعميم والشمول بنزوعٍ واقعي وعقلاني، وهو في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكِّه وتعليله يؤكد أنه العالِم الذي يُعْمِلُ عقله في

البحث عن الحقيقة، ولكنه مع ذلك، استطاع برهافة حسه أن يصبغ على بحثه صبغة أدبيَّة جماليَّة(٥).

مظاهر عقلانية الجاحظ

تتضح عقلانية الجاحظ في نزوعه إلى التصنيف والترتيب والتبويب، إذ صنف الحيوانات– في كتابه الحيوان مثلا– ودرس أخبارها وقسمها إلى أربعة أقسام : قسم يمشي وقسم يطير وقسم يسبح وقسم يزحف، وهو تقسيم اهتدى إليه عن طريق المعاينة والمشاهدة والتجريب، ويدل هذا التصنيف على توفر فكر منظم يرفض التشويش المعرفي، كما يدل على منهجية في البحث تقوم على وضوح المقاصد، وعمق الفكر. فقد كان الجاحظ مصنِفًا للعلوم، واضعًا للقوانين العلمية التي توجهه إلى تمييز الصواب من الخطأ، وتمحيص الخرافي والعقلي.

ولم يكتفِ الجاحظ بالشَّك أساسًا من أسس منهجه في البحث العلميِّ، بل عَرَضَ لِمَكانة الشَّك وأهمِّيَّته من النَّاحية النَّظريَّة والتطبيقية في كثيرٍ من مواضع كتبه، فيقول: ''واعْرِفْ مواضع الشَّك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلَّم الشَّك في المشكوك فيه تعلُّماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تَعَرُّف التَوقُّف ثُمَّ التثبُّت، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه. ثمَّ اعلم أنَّ الشَّكَّ في طبقاتٍ عند جميعهم، ولم يُجمعوا على أنَّ اليقين طبقات في القوَّة والضَّعف''(٦).

وقد اعتمدت في هذا البحث على عدة مناهج تناسب طبيعته، وهي المنهج الفلسفي التحليلي النقدي، والمنهج التاريخي، والمنهج اللغوي، وقسمت هذه الدراسة إلى ملخص، ومقدمة ضمنتها التعريف بموضوع البحث والهدف منه والأسباب التي دفعت الباحث لبحثه ومنهج الدراسة، وأربعة مباحث هي:

الأول: أثر الإسلام في تشكيل النظر العقلي عند الجاحظ.

الثاني: أثر ثقافة العصر العباسي في تكوين الاتجاه العقلي عند الجاحظ

الثالث: العقل عند الجاحظ.

الرابع: إشكالية الشك عند الجاحظ بين النظرية والتطبيق

ثم ذكرت خاتمة البحث ونتائج الدراسة، والمصادر والمراجع مرتبة كما جاءت في المتن والهوامش.

المبحث الأول: أثر الإسلام في تشكيل النظر العقلي عند الجاحظ

أولا: أثر القرآن الكريم

إن بحوث الجاحظ وثيقة الصلة بالقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية وما اتصل بهما من علوم متنوعة كالتفسير والفقه والسيرة، وأيضًا وثيقة الصلة بفرق علم الكلام لاسيما المعتزلة التي ينتمي إليها، دون أن نغفل أثر اللغويين والرواة في أدبه.

إن اختلاف المسلمين وغيرهم في فهم الآيات المحكمات والمتشابهات والمسائل المتنوعة التي جاء بها القرآن مثل: مسألة صفات الله، ومسألة رؤيته، وأفعال العباد وما يترتب عليها من عقاب أو ثواب، وعلاقة الإيمان بالعمل، هذا الاختلاف أدى إلى وجود عدة فرق إسلامية عرفت بالفرق الكلامية، ومنها المعتزلة التي ينتمي إليها الجاحظ.

ويؤكد الجاحظ أن كل متكلم عليه أن يطلع على ما ورد في القرآن الكريم من أحكام ومعان وشواهد وأدلة، ليبني موقفه من هذه المسائل على أسس قوية مستمدة من نص شرعي، أي خبر متواتر صحيح لا يختلف فيه إثنان وهو كتاب الله وسُّنَّة رسوله؛ فكان لزاما على الجاحظ وهو من متكلمي المعتزلة أن ينهل كغيره، من القرآن الكريم الذي يصفه قائلا: " القرآن حجة على الملحد، وتبيان للموحد، قائم بالحلال المنزل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقام به الفروض والنوافل، وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يخزن ذكاؤه، وشهاب لايطفأ نوره، وبحر لايدرك غوره، ومعدن لا تنقطع كنوزه، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار، وزاجر يصد عن المحارم، ويجير يوم التحاكم."[٧]

إن القارئ لكتب الجاحظ ورسائله يلاحظ بوضوح أثر الإسلام في فكره، ويتجلى هذا الأثر في الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: كُتُب الجاحظ عن القرآن التي ذكر أنه ألفها، وأشار إليها في كتب أخرى ومنها: كتاب "آي القرآن" الذي يشير إليه في كتابه الحيوان فيقول: " ولي كتابٌ جَمَعْتُ فيه آياً من القرآن؛ لتَعرِفَ-يخاطب من أهداه كتاب الحيوان- بها فصل ما بينَ الإيجاز والحَذْف، وبين الزّوائد والفُضول والاستعارات، فإذا قرأْتها رأيت فضلها في الإيجاز والجَمْعِ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظ القليلة على الَّذي كتبتُهُ لك في بابِ الإيجازِ وترك الفضول، فمنها قوله تعالى حينَ وصفَ خمرَ أهلِ الجنّة:﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾[٨] وهاتان الكلمتان قد جَمَعتا جميعَ عُيوبِ خمرِ أهلِ

الدُّنيا، وقولُه تعالى حينَ ذكر فاكهة أَهلِ الجنّة فقال:﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[٩]جمع بهاتين الكلمتين جميعَ تلك المعاني"[١٠].

الملاحظة الثانية: في أجزاء مختلفة من كتاب الحيوان يذكر الجاحظ أن له "كتاب في الإحتجاج لنظم القرآن"، وفيه عرض رأيه في مسألة إعجاز القرآن، وله أيضا "كتاب مسائل القرآن" الذي قد يكون هو نفسه "كتاب المسائل" الذي ذكره في كتابه الحيوان، وذكر ابن النديم في كتابه "الفهرست"[١١] أن للجاحظ كتابًا يسمى "كتاب المسائل في القرآن"، وله أيضا كتاب عنوانه: "كتاب الرد على من ألحد في كتاب الله تعالى" ، ويقول الجاحظ مخاطبًا مَنْ أهداه كتاب الحيوان:"عبتَ كتابي في خلْق القرآن، كما عبت كتابي في الردِّ على المشبّهة؛ وعِبْتَ كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام، كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه، وعبتَ كتابي في معارضَتي للزيدِيَّة وتفضيلي الاعتزالَ على كلِّ نِحْلة، كما عبتَ كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصارى واليهود ..، ثم عبتَ كتاب الجوابات، وكتاب المسائل، وكتابَ أصحابِ الإلهام، وكتابَ الحجَّة في تَثبيت النبوّة، وكتاب الأخبار[١٢]، وكلها كتب ترتبط بالقرآن وقضاياه.

الملاحظة الثالثة: إن كتاب الجاحظ "في خلق القرآن" حُفِظَ قسم منه، ضَمَّنَه الجاحظ نقده الموجه إلى القائلين بأن القرآن مخلوق على المجاز من أمثال "معمر بن عباد"[١٣]، و"ثمامة بن أشرس"[١٤]، كما يذكر فيه؛ محنة "ابن حنبل" مع مسألة خلق القرآن.[١٥]

الملاحظة الرابعة: يظهر تأثير القرآن في تشكيل الفكر العقلي عند الجاحظ من خلال اقتباسه من آياته وقصصه، كاقتباسه قصة إبليس وكبره، وقصة قابيل القاتل لأخيه هابيل، بل إن الجاحظ يستوحي أفكاره من آي القرآن الكريم، من ذلك قوله: "الحسد عقيد الكفر"[١٦]، فهي فكرة مستوحاة من آية قرآنية يستشهد بها الجاحظ وهي قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٧].

ويسلم الجاحظ بما ذكره القرآن على أنه حقائق وعقائد يقينية لا يمكن ردها، ثم يبني تفكيره وسلوكه بحسب ما تقتضي تلك الحقائق والعقائد ليدافع عن الدين والفكر ضد خصومه، فالجاحظ مثلا لا يتحرج من أن ينقل كلام اليهود والنصارى ولو كان مضمونه شركًا وكفرًا، لأن القرآن الكريم قد نقل مثل هذا الكلام عنهم، وفي ذلك يقول الجاحظ: "لولا أن الله قد حكى في القرآن عن اليهود أنهم قالوا إن عزير ابن الله، وحكى عن النصارى أنهم قالوا: إن المسيح ابن الله،

وهذا واضح في قوله تعالى:﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١٨]، و﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا..﴾[١٩]، و﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٢٠]، لكنت لأن أخرَّ من السماء أحبَّ إلي من أن ألفظ بحرف مما يقولون.." [٢١]

مما سبق يتضح تأثير القرآن في تشكيل النظر العقلي عند الجاحظ، حيث يستشهد كثيرًا بآياته أثناء شرحه لبعض المسائل ومجادلته للمخالفين له، فقد ولد الجاحظ ونشأ في البصرة، وتلقى علومه الأولى في المساجد وعلى أيدي علماء الإسلام، وتأثر بالحسن البصري(ت١١٠هـ)، وعمرو بن عبيد(ت ١٤٣هـ أو ١٤٤هـ) ووضعهما في منزلة صحيحي العقل[٢٢].

أدرك الجاحظ أنه لا سبيل إلى الإيمان بالله تعالى وبالإسلام إلا العقل، وأدرك أنه ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢٣]، أي لا إكراه في الدين عقيدةً وإيمانًا؛ فالله تعالى لم يقهر خلقه، وهو خالقهم، على الإيمان به كربٍّ لهم حتي يؤمنون به حبًا فيه وطاعةً له تعالى، ولم يقهرهم على الإيمان بدين معين، وإنما خلق لهم العقل وترك لهم حرية الاختيار، ولم يقهرهم مثلما قهر السموات والأرض والجمادات والنباتات على أشياء معينة.

ويضع القرآن أمام عقل المخاطَب –المتلقي– آياتٍ أخرى لتكتمل وتتضح الرؤية العقلية، فيمعن العاقل التفكير في نفسه وفي كل ما حوله تمهيدًا لحسن الاختيار، مثل قوله تعالى:﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فليس هذا على سبيل التخيير، فإن الله قال في تتمة الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[٢٤]، أي أن العاقل عليه أن يربط بين الآيتين ليستنبط بعقله مراد النص الذي قُصِدَ به الإرشاد إلى ضرورة الإيمان بالله تعالى، لأن آيات القرآن الكثيرة تؤكد حرية العقل في اختيار الإيمان أو الكفر، مثل قوله تعالى:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢٥]، وقوله تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[٢٦].

ويوجد فرق بين القهر على دخول الدين، والقهر على مطلوب الدين، فالتكليف الإلهي للإنسان يرتبط بنضج العقل والبلوغ ليلتزم مَنْ يؤمن باتباع مبادئ الدين؛ فيصبح مسئولا عن

اختياره وأفعاله؛ فالإيمان الحق يُبنى على أساس العقل وحرية الإختيار، والمخَيَّر متى ميز الرشد من الضلال، أقبل مطيعًا أو أدبر مقتنعًا بتبعات أفعاله، وليس السبيل إلى الإسلام طريق الخوارق الحسية التي تخضع لها الأعناق دون اختيار أو نظر عقلي؛ فالمعجزات" لم تحول جماعة ولا أمة من الشرك إلى التوحيد، وهدف الرسالة السماوية هو إيقاظ أعظم ما في الإنسان، أي عقله وقلبه[٢٧].

ولم يبقَ طريقٌ للإيمان بالإسلام سوى طريق الحجة والبرهان، وقد أرشد القرآن إلى هذا الطريق، فدعا إلى التدبر في النفس والكون ونظامه وأسراره، الأمر الذي يجعل صدور الكون عن نفسه في نظر العقل الصحيح أمرا مستحيلا ، فلابد للكون من خالق لا خالق له ؛ فهو غني عن كل الخلق ؛ وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢٨] ، وكلها دلائل حسية وعقلية على وجود الله تعالى وقدرته.

ويلح القرآن مناديًا أصحاب العقول والنُّهَى والألباب في آيات كثيرة، فيخصهم بالذكر والإعتبار والتأمل، فيكرر عبارة ﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وحدها ستة عشر مرة[٢٩]، وترد في القرآن ألفاظ وصيغ أخرى تدل على معنى العقل واستخداماته مثل: تعقلون، يعقلون، يعقل، نعقل[٣٠]، يتدبرون[٣١]، يتفكرون[٣٢]، وغيرها من الأفعال والصيغ التي تدل على حاجة الحواس للعقل، ليتأمل الإنسان في نفسه وفي كل ما خلق الله كدليل على وجود الله وقدرته، مما يؤدي إلى زيادة الإيمان به تعالى، وهو ما يؤكد فعالية وأهمية العقل في الإسلام.

وقد تعددت الصيغ التي ذكرها القرآن دلالة على العقل والأفعال المرتبطة به؛ فقد ورد فِعلُ العقل–وما يدل عليه– في أكثر من آية[٣٣]، ولم يَرِدْ لفظ العقل بشكلِ مصدرٍ مطلقًا، وكل أفعال العقل تدلُّ على عملية الإدراك والتفكير والفهم لدى الإنسان، ونشير إلى بعض هذه الأفعال فيما يلي:

[١] ورد فعل العقل بصيغة ﴿ تَعْقِلُونَ﴾: في أربعٍ وعشرين موضعًا في القرآن؛ منها على سبيل المثال قوله تعالى:﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣٤]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣٥]، وجاءت كلمة العقل بصيغة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ في اثنينِ وعشرين موضعًا؛ منها قوله:﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣٦]، وجاءت كلمة العقل بصيغة ﴿ يَعْقِلُهَا﴾ مرةً واحدة في قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[٣٧]، وجاءت كلمة العقل بصيغة ﴿ نَعْقِلُ ﴾ مرةً واحدة في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ

السَّعِيرِ﴾[٣٨]، وجاءت كلمة العقل بصيغة ﴿عَقَلُوهُ﴾ مرة واحدة في قول الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٣٩].

[٢] ورد معنى العقل بلفظ الألباب: في القرآن في صفة أصحاب العقول ستَّ عَشْرَةَ مرة في القرآن الكريم؛ نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٤٠]، وقوله :﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[٤١].

[٣] ورد معنى العقل بلفظ النُّهَى: في القرآن لتدل على أصحاب العقول مرتين، في قوله تعالى: ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[٤٢]، وفي قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[٤٣].

[٤] ورد معنى العقل بلفظ القلب: في القرآن الكريم ليدلَّ على العقل أيضًا في إحدى دلالاته، قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[٤٤]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٤٥].

[٥] ورد لفظ الحِجْر ليدل على العقل: فقد ورد مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[٤٦].

[٦] ورد لفظ العقل بصيغة الفكر: ورد بصيغة ﴿ فَكَّرَ﴾ مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[٤٧]، وورد بصيغة ﴿ تَتَفَكَّرُوا﴾ مرة واحدة أيضًا في قوله:﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾[٤٨]، وورد بصيغة﴿ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ثلاثة مرات؛ منها قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٤٩]، وورد بصيغة ﴿ يَتَفَكَّرُوا﴾ مرتين؛ الأولى في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٥٠]، والثانية في قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[٥١]، وورد بصيغة ﴿ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إحدى عشرة مرة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥٢].

[٧] جاءت كلمة العقل بصيغة يتدبرون: فجاءت كلمة ﴿ يَتَدَبَّرُونَ﴾ في القرآن في آيتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٥٤].

ومن الآيات القرآنية السابقة وغيرها يتضح أن القرآن يتبنى المنهج العقلي عند دعوته الناس للهداية والإيمان بالله، فيوجه الإنسان ليستدل بعقله من خلال الصنعة على الصانع، ومن خلال الإتقان على المتقن، ويستدل بعقله من خلال الأوامر والنواهي على ما ينفعه وما يضره،

فيلتزم بطاعة الله ورسوله ﷺ إلتزامًا عقليًا تلقائيًا، لأنه يعلم أن في ذلك خيره وسعادته، ونوضح بعضًا من هذه الدلائل فيما يلي:

الدلالة الأولى: تعتمد دعوة القرآن للعقل ليؤمن بالله تعالى وبالإسلام على وسائل مهمة للإقناع، ومن أمثلتها: الدعوة إلى التفكر والتدبر في آيات القرآن الكريم ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٥٥] ليتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به[٥٦].

ويستثير القرآن العقل الإنساني متحديًا له أن يأتي بمثل هذا القرآن، حتى إذا ما عجز سلَّم مقتنعًا بأنه من عند الله تعالى؛ فيقول في –سورة هود– معلنًا التحدي المستمر للعرب ولغيرهم: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[٥٧]، لقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا؛ فتحداهم بسورة فعجزوا، وقد صور الزمخشري أن "الانتقال من العشرة إلى الواحدة تَنَزُّل في التحدي كمن يقول لمن يتعلم الكتابة، اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فلا يستطيع، فيقول له اكتب سطرًا واحدًا، فإذا لم يكتب كان ذلك دليلًا على العجز المطلق، ولقد ادعوا –أي الكفار– على النبي ﷺ أنه افتراه–أي جاء به من عند نفسه–، فتحداهم أن يأتوا بعشر سِوَرٍ مثله مفتريات، فإن قال قائل: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى والقرآن غير مفترى؟ يرد الزمخشري: أي مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى."[٥٨].

وقبل سورة هود في ترتيب المصحف تأتي سورة البقرة، ويتحدى الله تعالى الكفار فيقول:﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥٩]، فبعد "أن احتج الله عليهم بما يثبت الوحدانية ويحققها –في الآية ٢٢ من سورة البقرة– ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعَرَّفَهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم الله عليه من معرفته وتمييزه، عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوّة محمدﷺ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند اللَّه كما يدعى ﷺ ، أم هو من عند نفسه كما يدعون ، بإرشادهم إلى أن يحذروا أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته. فإن قلت: لم قيل: ﴿ مِمَّا نَزَّلْنا﴾ (على لفظ التنزيل دون الإنزال؟)، لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من محازه لمكان التحدي . وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند اللَّه مخالفًا لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نجومًا سورة بعد سورة وآيات عقب آيات، على

حسب النوازل والحوادث..، وقوله تعالى:﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم، أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرًا عربيًا أو أميًا لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير.."[٦٠]، ويحسم الله تعالى هذا التحدي بقوله: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٦١].

ويدعو القرآن الناس لاستخدام عقولهم للتدبر في مخلوقات الله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[٦٢]، وفي هذه الآية يقول الله تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وإنه لا إله غيره ولا ربَّ سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل في قدرة الله على خلق الأشياء الموجودة في العالمين العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خُلِقَت سدى ولا باطلا، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال تعالى في نفس الآية: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾، ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل والبراهين، مِن إهلاك مَنْ كفر بهم، ونجاة مَنْ صَدَّقَهم، وآمن برسالاتهم.

ويستثير القرآن العقل مرة أخرى أن يجد خللا في شيء من المخلوقات حتى إذا ما عجز زاد تسليمًا واقتناعًا وإيمانًا بوجود الله وقدرته المطلقة﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[٦٣]. الذي خلق سبع سموات متناسقة مرتبة تخلو من العيوب، بعضها فوق بعض، ما ترى في خلق الرحمن- أيها الناظر- من اختلاف ولا تباين، فأعد النظر إلى السماء: هل ترى فيها مِن شقوق أو صدوع؟ ثم أعد النظر مرة بعد مرة، يرجع إليك البصر ذليلا صاغرًا عن أن يرى نقصًا، وهو متعب كليل"[٦٤].

ويدعو القرآن العقل ليتدبر تشريعاته تعالى، فيجد فيها عبرة وإعجاز، فيتقي الله في نفسه ويؤمن، ويبتعد عن قتل الآخرين، فيقول تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦٥]، ودعاه أيضًا إلى التدبر والنظر في أحوال الأمم الماضية وعاقبة معاصيهم التي أصروا عليها: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٦٦].

كما يدعو القرآن العقل والعقلاء إلى التدبر والنظر والتأمل في هذه الحياة الدنيا ونعيمها الزائل، فيقول تعالى:﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[٦٧]،﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ ﴾ يا محمد﴿ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في حسنها وبهجتها؛ مع سرعة زوالها وانقضائها ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بيسر وسهولة ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي شرب منه، ونما وازدهر بسببه؛ غير أنه ذبل بعد ذلك﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾، يابسًا متكسرًا﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾، أي تنسفه وتطيره[٦٨].

الدلالة الثانية: يوجه القرآنُ الكريم العقلَ إلى الهدف من وجود الإنسان في هذا الكون؛ فيوجه طاقته لمراقبة الحياة الاجتماعية بقصد إصلاحها، تعميرًا للكون، وتحقيقًا للسعادة والنجاة من النار﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٦٩]، "ولتكن منكم –أيها المؤمنون– جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وهوما عُرِف حسنه شرعًا وعقلا، وتنهى عن المنكر الذي عُرِفَ قُبْحُه شرعًا وعقلا، وأولئك هم الفائزون بجنات النعيم"[٧٠].

ويشرحها الزمخشري بقوله:" ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾: مَنْ للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا مَنْ علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحُكمَ في مذهبه، وجهله في مذهب صاحبه، فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة..، ويفسر ابن كثير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أمة﴾، أي قائمة مُنْتَصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾...

وتعتبر مهمة إصلاح المجتمع مسئولية مؤسساته ومسئولية كل فرد فيه، فلا قيمة للصلاح إذا اقتصر على إصلاح الذات ولم يتسع لإصلاح الآخرين مع القدرة على ذلك ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٧١]، وفي هذه الآية يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من حدوث ﴿ فِتْنَةً﴾ تصيب الناس جميعًا.

ويشرح الزمخشري قوله تعالى:﴿ فِتْنَةً﴾، أي ذنبًا. قيل هو إقرار المنْكَرِ بين أظهرهم. وقيل: افتراق الكلمة. وقيل فِتْنَةً أي عذاباً . وقوله :﴿لا تُصِيبَنَّ﴾ لا يخلو من أن يكون جوابًا للأمر. أو نهيًا بعد أمر. أو صفة لفتنة، فإذا كان جوابًا، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم، وهذا كما يحكى أن علماء بنى إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيرًا، فعمهم الله

بالعذاب، وإذا كانت نهيًا بعد أمر فكأنه قيل: واحذروا ذنبًا أو عقابًا، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة..، ويشرح ابن كثير كلمة ﴿ فِتْنَةً﴾ بقوله: اختبارًا ومحنةً، يعم بها المسيء وغيره، ولا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب وحده، بل يعم الجميع، حيث لم تدفع وترفع(٧٢).

الدلالة الثالثة: القرآن يدعو العقل إلى الإيمان بالله تعالى واتباع ما أنزله سبحانه، وينعى على المقلدين الذين لا يُعْمِلُون عقولهم في محاولة فهم الكون من حولهم وربط الظواهر ببعضها، ويكتفون باتباع نظريات واهية وآراء زائفة ليس لها مايؤيدها من البراهين لمجرد أنهم ورثوها من آبائهم وأجدادهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٧٣).

وإذا تحدث المؤمنون مع أهل الضلال والكفر والشرك ناصحين لهم، وقالوا: اتبعوا ما أنزل الله من القرآن والهدى، أصر الكفار على تقليد أسلافهم المشركين قائلين: لا نتبع دينكم، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. أيتبعون آباءهم ولو كانوا لا يعقلون عن الله شيئًا، ولا يدركون رشدًا(٧٤)، والقرآن يحذر من هذا السلوك، ويحذر أن يتبع الإنسان ما ليس له به علم، وأن يقلد دون وعي وتفكير وتمحيص،لأنه يُسْأَلُ عن أفعاله وأقواله ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾(٧٥)، أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تَثَبَّت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ، فالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، عليه أن يعد للسؤال جوابا، وذلك لا يكون إلا باستعمال﴿ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ﴾ لعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى، ولا تتبع –أيها الإنسان– ما لا تعلم، بل تأكَّد وتثبَّت. إن الإنسان مسؤول عما استعمَل فيه سمعه وبصره وفؤاده، فإذا استعمَلها في الخير نال الثواب، وإذا استعملها في الشر نال العقاب، ويفسرها الزمخشري بقوله: "وَلا تَقْفُ ولا تتبع . وقرئ: ولا تقف، يقال: قفا أثره وقافه، ومنه: القافة، يعنى: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل، كمن يتبع مسلكًا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال. والمراد: النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولا ظاهرا. لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده...(٧٦).

الدلالة الرابعة: كرَّم الله العقل ودعاه إلى العلم، وإلى طلبه، وقرن ذِكْرَ أولي العلم بذِكْرِه I وذِكْرِ ملائكته، فيقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٧٧]، وفيها بَيَّنَ الله لخلقه الدلائل وَالْآيَات ﴿ لَا إِلَهَ ﴾، أي لَا مَعْبُود فِي الوجود بحق ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾، شهد بذلك ﴿ الْمَلَائِكَةُ ﴾، أي أقروا ومعهم ﴿ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ مِنْ الْأَنْبِيَاء وَالْمُؤْمِنِينَ بِالِاعْتِقَادِ وَاللَّفْظ ﴿ قَائِمًا ﴾ بِتَدْبِيرِ مَصْنُوعَاته وَنَصْبه عَلَى الْحَال وَالْعَامِل فِيهَا مَعْنَى الْجُمْلَة أَيْ تَفَرَّدَ ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بِالْعَدْلِ، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ فِي مُلْكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي صُنْعه[٧٨].

وجعل الله العلم مشاعًا ممكنًا ومتاحًا للعباد؛ لأنه غذاء العقل، ولعن أولئك الذين يحتكرونه قائلا:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٧٩] والذين لعنهم الله هم علماءَ اليهود وأحبارَها، وعلماءَ النصارى، لكتمانهم الناسَ أمرَ نبوة محمدﷺ ، وتركهم اتباعه وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل[٨٠]، و﴿ الْبَيِّنَاتِ﴾ التي أنزلها الله: ما بيَّن من أمر نبوة محمد ﷺ ومبعثه وصفته، في الكتابين اللذين أخبر الله تعالى ذكره أنّ أهلهما يجدون صفته فيهما، ويعني تعالى ذكره بـ﴿ وَالْهُدَى ﴾ ما أوضح لهم من أمره في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، فقال تعالى ذكره: إنّ الذين يكتمون الناسَ الذي أنزلنا في كتبهم من البيان من أمر محمد ﷺ ونبوته، وصحة الملة التي أرسلته بها وحقِّيَّتها، فلا يخبرونهم به، ولا يعلنون من تبييني ذلك للناس وإيضاحِه لهم، في الكتاب الذي أنزلته إلى أنبيائهم، ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[٨١].

الدلالة الخامسة: كرَّم الله العقل فأسند إليه استنباط الأحكام فيما لا يوجد فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع مع عدم تعارض هذا الاستنباط مع الأحكام الشرعيي التي ثبتت بالقلاآن والسُّنَّة، وهو ما يعرف بمبدأ الاجتهاد.

الدلالة السادسة: توَّج الله تعالى تكريمه للعقل بأن أمر الإنسان بالمحافظة عليه، وتحريم كل ما يعوق فعله وأثره، فضلًا عما يزيله؛ ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٨٢]، وفي الآيتين: أكد الله تحريم ﴿ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾ وجوهًا من التأكيد: منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنه قول الرسول ﷺ { شارب الخمر كعابد الوثن} [٨٣]، ومنها أنه جعلهم رجسًا كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[٨٤]، ومنها

أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر، وما يؤدّيان إليه من الصدّ عن ذكر اللّه، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وقوله ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به[٨٥].

وواضح من الآيتين أن الإسلام يحرص على سلامة العقل كأساس للتكليف حفاظًا على إنسانية الإنسان؛ فيذم الله تعالى هذه الأشياء القبيحة ﴿الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس، ويأمر باجتنابها ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾، أي: اتركوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حَرَّمَ الله، مثل الخمر، وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره، والميسر، وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما يُنصب ويُعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها، فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنَى، وإن لم تكن نجسة حسًا. والأمور الخبيثة يجب اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها، ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان ، ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عن هذه المفاسد والمحرمات، بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ لأن العاقل –إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد– انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ[٨٦].

الدلالة السابعة: رغم اهتمام الإسلام بالعقل وتكريمه له، إلَّا أنه وضع للعقل حدودًا لا يتجاوزها، وحدد له أمورًا لا يبحثها ؛ فحذره من التفكير فيما لا يستطيع إدراكه؛ خشيةً عليه، وحرصًا على سلامته حتى لا يضل، وكيف له وهو المخلوق أن يدرك ذات الخالق؟! بل أنَّى له أن يدرك كل المخلوقات؟! فليؤمن بما استطاع إدراكه، وليبني على ما أدرك ما لم يدرك، وما أعظمها من شفقة حين قال الرسول ﷺ: {لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: خَلَقَ الله الخَلْق فمن خَلَقَ الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا؛ فليقل: آمنت بالله}[٨٧]، ويتفق حديث النبي ﷺ مع قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٨٨] فصرف الله تعالى العقل عن الجواب عن ماهيتها؛ لأنه ليس من شئونه ولا من مداركه..[٨٩].

الدلالة الثامنة: ترك الله تعالى الإنسان يستدل بعقله على ثواب الطاعة وعقاب المعصية من خلال النظر فيمن أهلكهم الله بقدرته من الأمم السابقة، على صغر أقدار الهالكين، وإن تعنتوا وتجبروا، فَعَرَّفَهم عجْزَهم وذكَّرَهم بصغر أقدارهم بأن عَذَّبَهم" بالجراد والقمل والضفادع الضعيفة والرعد والبرق والدم، بدلا من الشياطين والعفاريت والملائكة والماء والريح والحيوانات السامة[٩٠]، ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[٩١]، و﴿ الطُّوفَان﴾ يُراد به طغيان الماء، والماء سبب الحياة، وقد يجعله الله سببًا للدمار حتى لا تفسر المسائل بذاتيتها، بل تحدث المسائل بتوجيهات القادر عليها، وعندما ننظر إلى الطوفان الذي أغرق من قبل قوم نوح عليه السلام، ولم ينجُ أحد إلا مَنْ ركب مع نوح في السفينة؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم. وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بني إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقي فيبقى واقفًا لأنه لو جلس يموت، ويظل هكذا، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام متواصلة، لا يعرفون فيها الليل من النهار، ويرون أمامهم بيوت بني إسرائيل–الذين أمنوا بموسى وبربه– لا تلمسها المياه، وهذه معجزة واضحة، فعمّ الطوفان وأراد الحق أن يُنَجّي بني إسرائيل منه، دون حيلة منهم، حتى لا يُقال: آيةً كونيةً جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بيوت وأشخاص وممتلكات بني إسرائيل[٩٢].

والقرآن لم يغفل طبيعة العلاقة بين الحواس والعقل؛ وهذه الإستعمالات الكثيرة لكلمة العقل ومشتقاتها تدل على فاعلية" العقل" وأنه ليس ملكة محدودة؛ فتبدو فاعليته أنها غير مجزأة، و"تستخدم نشاط الأذن والعين والعاطفة والذكرى والتعرف والإستبطان والنفاذ "[٩٣].

إن طريقة القرآن في الحديث عن العقل وتوظيفه تؤكد علاقة "الحواس بالعقل"، فالعقل في القرآن يشير إلى الفهم المبني على تجربة معينة مستمدة من السمع والرؤية والتذكر، أي أن الحواس تساعد العقل في التفكير والتدبر، لأن الليل والنهار والكواكب وباقي الآيات، ظواهر محسوسة مادية مشاهدة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، يُستَدَل بها على الحكمة التي تدل على أن الله فاطر هذا العالَم المشَاهَد ، وعلى سبيل المثال إذا تدبرنا قوله ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ* وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٩٤]؛ فإننا نجد فيها ربطًا واضحًا بين الفعل ﴿ يَفْسُقُونَ﴾ باعتباره ظاهرة عقلية، وبين ﴿آيَة بَيِّنَة﴾ تتمثل في آثار منازل الفاسقين الخربة، أو بقية الحجارة، أو الماء الأسود الموجود على وجه الأرض، وهذا يؤدي

إلى الإعتبار بعد الذكرى، بعد معاينة ما آل إليه أهل القرية في ذلك الزمن حيث يشير القرآن إلى عقابهم بسبب فسقهم، وارتكابهم ما نهاهم الله تعالى عنه . ومعنى هذا أن نعمة الحواس تكمن في كونها مُقومات ازدهار العقل، وتعطيلها يوقع في الضلال؛ فالتكامل بين" الحواس" و"العقل"، يؤكد أن الظاهرة العقلية في القرآن استدلالية سببية، فما نراه بحواسنا من آيات كونية، أو ما نسميه العالم المشَاهَد، دليل على الغائب، أي دليل على ما وراء المشاهد–المدرك– حسيًا ، وهذا العالم يدل عقليًا على السبب الأول لوجوده وهو الله، وسنجد هذه الفكرة واضحة لدى الجاحظ في كتابه "الحيوان" الذي يدل على التعاون بين الحس والعقل، أي بين العالم المشاهد والعالم الغائب، تكريسًا لمبدأ قياس الغائب على الشاهد(٩٥).

ثانيًا: أثر سُنَّة النبي محمد ﷺ في تشكيل الفكر العقلي عند الجاحظ:

إن أثر الحديث النبوي ورواته، واضح المعالم في فكر الجاحظ ، حتى أنه يجعل ما جاء به الرسول ﷺ دلائل على صدق القرآن، وهذه الدلائل يفرد لها الجاحظ كتاب "حجج النبوة"(٩٦) الذي يقول فيه: "فإذا نزلت الأخبار منازلها وقسمتها، ذكرت حجج الرسول ﷺ ودلائله وشرائعه وسُنَنَه(٩٧).

إن الجاحظ كثيرا ما يستشهد بالأحاديث النبوية عند حديثه عن بعض الحيوان، ففي الجزء الأول من أجزاء كتاب الحيوان على سبيل المثال ذكر أكثر من عشرين حديثًا عن النبي ﷺ (٩٨)، ويصف في كتاب البخلاء(٩٩)الكرم النبوي الذي تعدى كل جود، ويورد أحاديث كثيرة عن محاسن السخاء ومساوئ البخل، وهو في جميع آثاره مهما تعددت وتباينت مواضيعها، إنما يبحث في الكتاب والسُّنَّة، ويدل على ذلك قوله لقاضي القضاة"أحمد بن أبي دؤاد (ت٢٤٠هـ)" في "رسالة الفتيا": "فإذا قرئ عليك – أيدك الله– هذا الكتاب إلتمسنا أوقات الجماع وساعات الفراغ، ثم أتبعنا كل كتاب بما يليه إن شاء الله، وليست بحمد الله من باب الطفرة والمداخلة، ولا من باب الجوهر والعرض، بل كلها في الكتاب والسُّنَّة"(١٠٠).

إن السُّنَّة النبوية لم تهمل العقل الإنساني، فالنبي محمد ﷺ يذكر في أحاديثه مادة "عقل" بصيغتها الفعلية والإسمية وبصيغة التفضيل والمدح، أما الصيغة الفعلية فتتضح في وصفه لهؤلاء الناس الذين تلهيهم الدنيا عن حقائق الوجود: { مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، أُنْفِقُهُ كُلَّهُ، إِلَّا ثَلاَثَةَ دَنَانِيرَ، وَإِنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يَعْقِلُونَ، إِنَّمَا يَجْمَعُونَ الدُّنْيَا، لاَ وَاللَّهِ، لاَ أَسْأَلُهُمْ دُنْيَا، وَلاَ

أَسْتَفْتِيهِمْ عَنْ دِينٍ، حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ}[١٠١] ؛ فالصيغة الفعلية { لاَ يَعْقِلُونَ } تدل على عدم الإدراك والفهم.

وتتضح الصيغة الإسمية لمادة "عقل" في حديث النبيﷺ الذي يصف النساء بأنهن{ ناقصات عقل ودين}[١٠٢]، ويتفق حديث النبي ﷺ مع قوله تعالى: {أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى}[١٠٣] ونستنتج منهما أن العقل أساس الحكم الشرعي الذي يقضي بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، وأنه لاتعارض بين القرآن والسُّنَّة .

وكذلك وردت الصيغة الإسمية لمادة "عقل" في سؤال الرسولﷺ عن ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاءه يعترف بالزنا ويطلب منه إقامة الحد عليه ليطهره من فعلها وذنبها،" فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: أتعلمون بعقله بأسًا تنكرون منه شيئًا؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفيَّ العقلِ من صالحينا فيما نرى"[١٠٤]، وهذا الحديث يجعل" العقل "مناط المسؤولية والتكليف، فلا مسؤولية على مَنْ لا عقل له حتى يعود إليه عقله[١٠٥].

والأحاديث النبوية التي ترفع من شأن العقل كثيرة، فهي تمدحه وتختصر المروءة فيه[١٠٦]، وتجعله مناط التكليف، وتعدُّه آلة الإدراك والفهم، وعلى أساسه يتم التقديم والتفضيل[١٠٧]. ومنها ما يدل على الحلم والأناة ؛ وقد ورد ذكر" العقل" فيها مشارًا إليه بألفاظٍ مثل" الحلم" و"النهى" وذلك في قوله ﷺ للأشج عبد القيس المنذر بن الأشج العصري سيد قومه {إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ}[١٠٨]، وكذلك في قوله ﷺ وهو يمسح مناكب الناس في الصلاة:{استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم}[١٠٩].

ومن أقوال النبي ﷺما يؤكد استعمال العقل في العبادة وفي طاعة الله؛ فليست العبرة بكثرة التعبد، أو الظهور بمظهر العبادة، بل بقدر ما بلغه عقل المرء في الدنيا من إتقان للعبادة والطاعة، وعلى أساسه يكون الجزاء في الآخرة، ويؤكد هذا الحديث ما روي عن ابن عباس τأنه دخل على عائشة رضي الله عنها فقال: يا أم المؤمنين، أرأيت الرجل يقل قيامه ويكثر رقاده، وآخر يكثر قيامه ويقل رقاده أيهما أحب إليك؟ قالت: سألت رسول اللهﷺ كما سألتني عنه فقال: {أحسنهما عقلا}، قلت: يا رسول الله ، أسألك عن عبادتهما، فقال{يا عائشة، إنهما يُسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة} [١١٠].

وإلى هذا المعنى يشير الجاحظ في رسائله السياسية فيقول: "والحكم هاهنا –أي في الدنيا– ، والحكم هناك –أي في الآخرة–، ولولا ذلك ما قامت مملكةٌ، ولا استقامت سياسةٌ، ويستشهد بتفسير إبنُ عباسτ للآية:﴿ وَمَنْ كَانَ فِيْ هذِهِ أعْمَى فَهَوَ فِيْ الآخِرَةِ أَعْمَىْ وأَضَلُّ سَبِيلا﴾[١١١]، حيث يقولُ: "مَن كانَ ليس له من العقلِ ما يعرفُ بهِ كيف دُبِّرتْ أمور الدنيا، فكذلك هو إذا انتقلَ إلى الدِّين ؛ فإنما ينتقلُ بذلك العقل، فبقدرِ جهلهِ بالدنيا يكونُ جهله بالآخرةِ أكثر؛ لإن هذهِ شاهدةٌ وتلك غيبٌ؛ فإذا جهلَ ما شاهدَ فهو بما غابَ أجهل"[١١٢].

ويؤكد الجاحظ نفس الفكرة بقوله: "آدابُ الدنيا، هيَ هيَ آدابُ الدِّين؛ لا فرقَ ألبتةَ. وأخلاقُ المرءِ في تدبيرهِ أمور حياتهِ ودنياه، هيَ نفسها التي يتدبرها في الدِّين. فما أفسدَ الدنيا من أخلاقِ المرءِ، هي نفسها التي تفسدُ عليهِ الدِّين. الأمرُ سيَّان! وما الإختلافُ إلا في الدَّارَين"[١١٣].

وأمثلة أخرى من سُنَّة النبيﷺ تدل على استخدامه للقياس العقلي، فقد روى أبو هريرة عليه السلام أنَّ أعْرَابِيًّا أتَى رَسولَ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ: إنَّ امْرَأَتِي ولَدَتْ غُلَامًا أسْوَدَ، وإنِّي أنْكَرْتُهُ، فَقالَ له رَسولُ اللَّهِ ﷺ: {هلْ لكَ مِن إبِلٍ؟، قالَ: نَعَمْ، قالَ: فَما ألْوَانُهَا؟، قالَ: حُمْرٌ، قالَ: هلْ فِيهَا مِن أوْرَقَ؟، قالَ: إنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قالَ: فأنَّى تُرَى ذلكَ جَاءَهَا، قالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، عِرْقٌ نَزَعَهَا، قالَ: ولَعَلَّ هذا عِرْقٌ نَزَعَهُ}، ولَمْ يُرَخِّصْ له في الِانْتِفَاءِ منه[١١٤]، ويُفهم من قول النبي ﷺ "لَعلَّ هذا عِرقٌ نَزعَه"، يعني: ولعلَّ ولدَك هذا أيضًا غلَبَ عليه لونُ أحدِ أصولِ نسبِه، ولم يُرخِّصْ له في نَفْيِ نَسبِه مِن ولدِه هذا.

ونلاحظ في الحديث الشريف: حُسنُ تَعليمِ النبيِّ ﷺ، حيثُ شبَّه أصلًا معلومًا بأصلٍ مُبيَّن؛ ليُفهِم السَّائِلَ؛ فقدْ شبَّه للأعرابيِّ ما أنكرَه مِن لَونِ الغُلام بما عَرَفَ مِن نتاجِ الإبلِ، فأبانَ له بما يَعرِفُ أنَّ الإبلَ الحُمرَ تُنتج الأَغْبَرَ، فكذلِك المرأةُ البيضاءُ تَلِدُ الأسودَ، وفي هذا الحديث قاس النبي ﷺ اختلاف لون بشرة الرضيع على وجود حالة مماثلة في الأبل ؛ فاستخدم العقل في فحص الواقع، ومنع الأعرابي من إنكار نسب الطفل له، لأن الإنسان كائن طبيعي تنطبق عليه القوانين الطبيعية كما تنطبق على الكائنات الحية الأخرى من بهائم ونباتات، ومن هذه القوانين الطبيعية قانون الوراثة الذي ينطبق على الإنسان، فإذا كانت الطفرة الوراثية يمكنها أن تحدث على مستوى البهائم، فإنها تحدث في حق البشر.

ونفهمُ من الحديث أيضًا أن حِفْظُ العِرضِ والنَّسلِ مِن مَقاصد الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ؛ ولذلك لا تُسمعُ التُّهمةُ فيما يخصُّ العِرْضِ والنَسَبِ والنسل، إلَّا ما كان مَبناهُ على اليقينِ، أي يقوم على دليل لايقبل الشك.

وقد استخدم الرسول ﷺ القياس العقلي للدلالة على وجوب قضاء الدين في حق الله تعالى وفي حق العباد، فعن ابن عباس عليه السلام أنَّ امْرَأَةً مِن جُهَيْنَةَ، جاءَتْ إلى النبيِّ ﷺ، فقالَتْ: إنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حتَّى ماتَتْ، أفَأَحُجُّ عَنْها؟ قالَ: نَعَمْ حُجِّي عَنْها، أرَأَيْتِ لو كانَ علَى أُمِّكِ دَيْنٌ أكُنْتِ قاضِيَةً؟ اقْضُوا اللَّهَ، فاللَّهُ أحَقُّ بالوَفاءِ}[١١٥].

المبحث الثاني: أثر ثقافة العصر العباسي في تكوين الاتجاه العقلي عند الجاحظ

من أهم الأسباب التي أدَّت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية في هذا العصر، الاتصالُ الخصبُ المثمر بين الثقافة العربية الإسلامية وثقافات الأمم الأخرى، وما اشتملت عليه من معارف وعلوم، وتم هذا الاتصال عن طريقين: طريق المشافهة مع المسْتعْرِبين، وطريق النقل والترجمة. وكان الطريقُ الثاني هو الأكثر تأثيرًا في تاريخ الثقافة العربية في العصر العباسي، وأهم تلك الثقافات هي اليونانية والفارسية والهندية.

وقد كان الخلفاء العباسيون منذ فاتحة هذا العصر يُعْنَون بالنقل عناية شديدة، وينفقون عليه الأموال الطائلة، وكان الخليفة المنصور أولَ من شجَّع على الترجمة، حيث نقلت في عهده كتب كثيرة في الفلك والهندسة والحساب والمنطق والطب .

وتنشط الترجمة في عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطًا واسعًا، وقد أذكى جذوتها حينئذ إنشاء « دار الحكمة » كدار عامة للكتب وُظِّف فيها عدد كبير من المترجمين .

وتبلغ هذه الموجة الجارفة للترجمة قِمَّتها في عهد المأمون، إذ حوَّل « دار الحكمة » إلى ما يشبه معهدًا علميًّا كبيرًا، وأرسل البعوث إلى بلاد الروم؛ لجلب أنفس ما في خزائنها من كتب لترجمتها إلى العربية .

وقد تكوَّنَتْ لدى الجاحظ ثقافةٌ هائلةٌ عن طريق التحاقه بحلقات العلم التي كان يديرها علماء عصره في مساجد البصرة وبغداد، وفي بيت الخلافة لمناقشة عدد كبير ومتنوع من الأسئلة والمشكلات القائمة في المجتمع الإسلامي والوافدة عليه، وبمتابعته لدروس أكثر الرِّجال علمًا في أيَّامه[١١٦]، في تخصصات مختلفة مثل علم الكلام، وفقه اللغة والنَّحو والشِّعر والأدب، سرعان ما حصَّل الجاحظ الأستاذيَّة الحقيقيَّة في اللغة العربيَّة بوصفها الثقافة الأم، وقد مَكَّنَهُ ذكاؤُه الحادُّ من

ولوج حلقات المعتزلة حيث المناقشات الأكثر بريقًا التي تهتم ببحث مشكلات المسلمين، وبالوعي الإسلامي في ذلك الوقت.

وإن كان معاصرو الجاحظ من العلماء، على موسوعيَّة ثقافتهم، أقرب إلى التَّخصص بالمعنى المعاصر، فإن «تردُّد الجاحظ على حلقات التَّدريس المختلفة قد نجَّاه من عيب معاصريه ذوي الاختصاص الضَّيِّقِ. فهو بدرسه العلوم النقليَّة قد ارتفع فوق مستوى الكُتَّاب ذوي الثَّقافة الأجنبيَّة قليلة النَّصيب من العربيَّة وغير الإسلاميَّة البتَّة»(١١٧).

ويضيف الفرنسي د.شارل بلَّا قائلا: " لم يكتفِ الجاحظ بالتردُّد على أوساطٍ معيَّنةٍ بغية التَّعمق في مادَّة اختارها بل لازمَ كلَّ المجامع التعليمية، واشترك في مناقشات العلماء المسجديين، وأطال الوقوف والجلوس أمامهم ليستمع منهم وإلى كلام الأعراب، إضافة إلى المحادثات التي جرت بينه وبين معلميه ومعاصريه في مختلف المواضيع وقراءة الكتب التي حصل عليها"(١١٨).

ونظرًا لسعة علم الجاحظ وكثرة معارفه وصفه القاضي عبدالجبار المعتزلي(ت٤١٥هـ) قائلا: «هو نسيج وَحْدِهِ في جميع العلوم؛ علم الكلام، والأخبار، والفتيا، والعربيَّة، وتأويل القرآن، وأيَّام العرب، مع ما فيه من الفصاحة»(١١٩).

ويدلنا كلام القاضي عبدالجبار: على أن الجاحظ قد دخل ''إلى المعترك الثقافي الإسلامي، حاملا في تكوينه العقلي كمًا وكيفًا معرفيًا متمثلًا في ثقافة السنوات التي سبقته، مما جعله يمتلك رؤية منهجية ثاقبة وقدرة على الجدل، ليدافع باستماتة عن مواقفه العقلية، ويصبغ ثقافة مرحلته، ويجعلها مواكبةً للتطورات، ومستوعبةً للتحولات'' (١٢٠).

ومما يؤكد صحة هذا القول أن العصر الذي عاش فيه الجاحظ شهد حراكًا ثقافيًا فكريًا مذهبيًا متنوعًا واسعَ المدى، متسمًا بالانفتاح على الثقافات المختلفة؛ فقد انتشرت في هذا العصرأربع ثقافات، كان لها الأثر الأكبر في عقول الناس وهي: الثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية، والثقافة الهندية، بجانب الثقافة العربية. كما وجدت معتقدات وثقافات دينية أهمها اليهودية والنصرانية والإسلام (١٢١).

ولاشك أن سر عظمة الجاحظ يرجع إلى ما أخذه عن أعلام مرحلته، وإلى انفتاحه على المجالس العامة والخاصة في عصره، ومعايشته للحظة التجاذب بين الفكر الإسلامي وبقية الثقافات الأخرى، وقدرته العقلية على رصد مظاهر تحركات الطوائف والفرق الدينية، وتفاعلات المجتمع مع تلك الفترة ومافيها من أحداث وأفكار جديدة.

ويتوافق نبوغ الجاحظ وتميزه مع إدراكه لتنوع ثقافة عصره في أبعادها الإنسانية، وخوضه في مشكلات عصره، وما يضطرب فيه من نزاعات وتيارات، بجرأة فكرية لا تتأتى إلا لأمثاله من نوابغ العصور، لأن مجتمعه وعصره كانا يضطربان بالمذاهب والملل والنحل، وتصطرع فيهما الأفكار والمناهج بأصولها المتعددة، وأشكالها المختلفة، وهي لحظة فارقة ومهمة حيث تفاعلت فيها حضارة الإسلام مع الحضارات السابقة، وحصل تجاذب بين الثقافة الإسلامية العربية وبقية ثقافات الأمم الأخرى من خلال حركة الترجمة"[١٢٢].

أولا: دور المعتزلة في تشكيل الاتجاه العقلي عند الجاحظ

شهدت البصرة في القرن الثالث الهجري شيوع الفكر الاعتزالي الذي تسلح بسلاح القرآن والسُّنَّة والفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وأساليب الجدال والمناظرة، وقد أسهم المعتزلة بكثير من الرؤى والأفكار والحلول حول قضية العقل التي كانت تؤسس لفعل ثقافي جديد، بحثًا عن حل لإشكالية–العقل والنقل– التي تمت صياغتها: العقل والمنطق في مواجهة النقل والتسليم المطلق؛ فقد "اعتبر المعتزلة العقل معين المعرفة، وأنه يستطيع أن يعلم كل شيء، حتى ما وراء الطبيعة، ولذلك أطلقوا له عنان البحث في جميع المسائل[١٢٣].

لم يفترق الجاحظ عن المعتزلة في مبادئهم الخمس وهي: العَدْلُ، والتَّوحيد، والمنزِلَة بَيْنَ المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ولكنَّه انفرد عنهم واستقل باتِّجاهه العقلي في مجموعةٍ من الآراء منها نظريته في المعرفة التي قادته إلى آرائه الخاصة في الله تعالى والنُّبوة والإمامة.

جدل العقل والمعرفة عند الجاحظ

يحاول دي بور[١٢٤] استخلاص نظرية الجاحظ في المعرفة بحثًا عن دور العقل فيها فينقل عن الشهرستاني قوله: إنفرد الجاحظ برأي هو: «إنَّ المعارف كلَّها ضروريَّةٌ طباعًا، وليس شيءٌ من ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كَسْبٌ سوى الإرادة، وتحصل أفعال العبد منه طباعًا كما قال ثمامة بن أشرس. ونُقل عن الجاحظ أيضًا– الكلام هنا للشهرستاني– أنَّه أنكرَ أصلَ الإرادة، وكونها جنسًا من الأعراض، فقال: إذا انتهى السَّهو عن الفاعل وكان عالما بما يفعله، فهو المريد على التَّحقيق، وأمَّا الإرادة المتعلِّقة بفعل الخير فهي ميل النفس إليه، وزاد ذلك بإثبات الطَّبائع للأجسام كما قال الطَّبيعيون من الفلاسفة، وأثبت أنَّ لها أفعالاً مخصوصةً بها. وقال باستحالة عدم الجواهر، فالأعراض تتبدَّل، والجوهر لا يجوز أن يفنى»[١٢٥].

ويؤكد الجاحظ أن: "الحواس جنس واحد، فحاسة البصر من جنس حاسة السمع ومن جنس سائر الحواس، والاختلاف يكون في جنس المحسوس وفي موانع الحساس والحواس لاغير ذلك، لأن النفس هي المدركة الحساسة- سبقه النَّظَّام لهذا القول- من هذه الفتوح التي اختلفت فصار واحد منها سمعًا والآخر بصرًا على قدر ما مازجها من الموانع، أما جوهر الحسَّاس فلا يختلف. ولهذا كان الجاحظ لايمانع أن يخلق الله حاسة سادسة غير معلومة لمحسوس سادس غير معلوم"(١٢٦).

واستمرارًا في البحث عن دور العقل في نظريَّة المعرفة عند الجاحظ يقول دي بور: "والإنسان عند الجاحظ قادرٌ أن يعرف الخالق بعقله، وعلى أن يدرك الحاجة إلى الوحي الذي ينزل على الأنبياء، وعنده أنَّ العالِم الحقَّ يجب أن يضمَّ إلى دراسة علم الكلام دراسة العلم الطَّبيعي، وهو يصف في كلِّ شيء أفاعيل الطَّبيعة، ولكنَّه يشير إلى ما في هذه الأفاعيل من أثر خالق الكون»(١٢٧)، والمعارف عند تحدث تحصل ضرورة وتتولد اضطرارًا ، وعمل الإرادة ينحصر عنده في توجيه الحواس والنظر، والإرادة في هذا الصنيع حرة غير مسيرة"(١٢٨).

وللجاحظ موقف من نظرية الثواب والعقاب ودخول المذنبين إلى النار فيقول: "أنَّ أهل النَّار لا يخلَّدُون فيها عذابًا، بل يصيرون إلى طبيعة النَّار..، والنَّار تجذب أهلها إلى نفسها من دون أن يدخل أحدٌ فيها"، وسيبني بعض الفلاسفة اللاحقين على هذا الرأي موقفهم من مشكلة حشر الأرواح لا الأجساد التي كفَّرهم بها الإمام الغزالي في كتابه التهافت(١٢٩)، والخَلَّق عند الجاحظ « كلَّهم من العقلاء، عالمون بأنَّ الله تعالى خالقهم، وعارفون بأنَّهم محتاجون إلى النَّبي، وهم محجوجون بمعرفتهم، ثمَّ هم صنفان؛ عالمٌ بالتَّوحيد وجاهلٌ به، فالجاهل معذورٌ، والعالم محجوجٌ...»(١٣٠)

وإذا كان مذهبه في إثبات القَدَرِ؛ خيره وشره من العبد، هو مذهب المعتزلة بإجماع مؤرِّخيه فإنَّ مذهبه في نفي الصِّفات هو مذهب الفلاسفة طبقًا لما حكاه الكعبي عنه: « يرى الجاحظ في نفي الصِّفات أنَّ الباري تعالى يوصف بأنَّه مريدٌ، بمعنى أنَّه لا يصحُّ عليه السَّهو في أفعاله، ولا الجهل، ولا يجوز أن يُغلبَ ولا أن يُقهرَ...، ومن انتحل دين الإسلام، فإن اعتقد أنَّ الله تعالى ليس بجسمٍ ولا صورةٍ ولا يُرى بالأبصار، وهو عدل لا يجور، ولايريد المعاصي، وبعد الاعتقاد والتبيين أقرَّ بذلك كلِّه، ثُمَّ جحده وأنكره، أَو دان بالتَّشبيه والجبر، فهو مشركٌ كافرٌ حقًّا. وإن لم ينظر في شيءٍ من ذلك، وَاعْتَقَدَ أَنَّ الله رَبَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فهو مؤمنٌ لا لوم عليه، ولا تكليف عليه غير ذلك»(١٣١).

وإجمال القول أن المعتزلة بما فيهم الجاحظ قد رفعوا العقل إلى مرتبة القياس والدليل في أمر العقيدة، واعتبروه حاسة سادسة في اكتساب المعارف. وبما أن المعرفة الحقيقية هي التي تفيد برد اليقين، وأن الشك مرحلة انتقالية في الوصول إلى اليقين، فيتبين لنا كيف أنهم أدخلوا الشك في منهج تفكيرهم وجعلوه الشرط الأول للمعرفة. ولقد قالوا إذن بسلطان العقل وحرية الإرادة، وحرروا بالتالي العقل من الجمود والوقوف عند ظاهر النصوص، وهم وإن اختلفوا في آرائهم، فإن ملامح حرية الرأي وتشريح المسائل ونقدها، حسب أصول مستقاة من المنطق، واضحة في نشاطهم الفكري" (١٣٢).

لقد "أعلى رجال المذهب الاعتزالي من شأن الشك وجعلوه منهجًا للوصول إلى اليقين، وقد نُقل عن الجبائي شيخ المعتزلة قوله: "أول الواجبات هو الشك لتوقف القصد إلى النظر إليه ، أن وجوب النظر والمعرفة مقيد بالشك، فهو لا يكون مقدمة للواجب المطلق بل للمقيد به كالنصاب للزكاة والاستطاعة للحج(١٣٣).

وقد كان الجاحظ على مذهب الاعتزال، وله مواقف وآراء تؤكد هذا الانتماء، وأثر المعتزلة واضح في مصنفاته، خصوصا الإعلاء من شأن العقل ورفض الفكر التسليمي الانطباعي. وقد أسهم بذلك في تأسيس تيار فكري وأدبي ينبني على معطيات الفلسفة وعلم الكلام والمنطق والثقافة اليونانية.

وبعد قول المعتزلة بخلق القرآن(١٣٤) وما تبع ذلك من الاستقواء بالسلطة السياسية على الآخرين، ومحنة الإمام أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ) ، وتغير الحال وحدوث ما عُرِفَ بنكبة المعتزلة واضطهادهم- واضهاد الاتجاه العقلي ممثلا فيهم- وانقلاب السلطة السياسية عليهم، نشط رافضو الاتجاه العقلي خاصة بعد أن "حدث الإنقلاب التركي المملوكي، حيث كان العسكر الترك المماليك جفاةً ضيقي الأفقِ لا دربة لهم ولا قدرة على استيعاب العقلانية الإسلامية، وكانوا بحاجة إلى تأييد العامة فيما اعتزموا من تغييرات، فانتزع الترك المماليك أئمة التيار العقلاني من مواقع القيادة والتأثيرات الفكرية والسياسية، وزجوا بهم في السجن، ونفوهم من الأرض، وأتوا بأقطاب التيار النصوصي(المضطهدين بالأمس) وملأوا بهم هذه المراكز للتوجيه والتأثير والتنفيذ، وأصبح تيار المعتزلة العقلاني فكرًا محرمًا يلاحقه الإضطهاد في عهد المتوكل(١٣٥) الذي "أظهر السُّنَّة، وتكلم بها في مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة، وبسط السُّنَّة، ونصر أهلها"(١٣٦).

وبلغ اضطهاد التيار العقلاني ذروته عندما اجتمع أئمة التيار النصوصي بتشجيع من الخليفة "أحمد القادر بالله – المتوفي سنة ٤٢٢هـ"(١٣٧) بقصد التحريم المطلق لفكر المعتزلة وتجريم

من يعتنقه، فأصدر مرسومًا سمي "الإعتقاد القادري" سنة ٤٠٨هـ، جاء فيه: يُمنع تدريس علم الكلام والمناظرة في مسائله، وخاصة الإعتزال، ويلعن المعتزلة على منابر المساجد، حتى يصير ذلك سُنَّة من سُنن الإسلام، ويُحَرَّمُ قول المعتزلة في"التوحيد" وفي"خلق القرآن"، ويُحَرَّمُ قولهم في "العدل"، ويتم الحديث عن أن الخلق لا قدرة لهم، بل كلهم عاجزون، ويُحَرَّمُ قول المعتزلة في "المنزلة بين المنزلتين"، ويقرر مذهب المرجئة في هذا الشأن(١٣٨).

ومن هذه الأسباب التي أدت إلى نشوء اتجاه يمثل رافضي التيار العقلي، أسباب تمتزج بأهداف دينية، خوفًا من أن ينساق المسلمون وراء العقل وحده، فيصبح العقل إمامهم، مما يوقع في نزعة التغالي في تحكيم العقل وتعظيمه، والتي تنسب إلى المعتزلة، فكان أن قابلتها نزعة تغالٍ من المحدثين في تعطيل العقل والاحتكام إلى النص الشرعي من قرآن وسُنَّة.

موقف الجاحظ من رافضي التيار العقلي

يتجلى موقف الجاحظ من رافضي التيار العقلي في انتقاده القصاص في التفسير والرواية، فأنكره وهزأ بقول المفسرين القائلين ببعض الأوهام الشائعة، كخلق السنور من عطسة الأسد، وخلق الخنزير من سلحة الفيل، وأنكر معرفة الجن للغيب، وإمكان رؤيتهم أو سماع صوتهم متأثرًا في ذلك بأستاذه "إبراهيم بن سيار النَّظَّام(١٣٩)، وقال في أخبار الجن أن" بعض أصحاب التأويل يُجَوِّزُ في هذا الباب ما لا يجوز فيه(١٤٠)، ويذكر الجاحظ أنه قد بسط رأيه في هذه المسألة في كتاب له سماه" النُّبوات "(١٤١).

ثانيًا: تأثير أرسطو في تشكيل الاتجاه العقلي عند الجاحظ

لقد عُرف عن المعتزلة شغفها بالفلسفة والمنطق، وقد استفاد الجاحظ من هذا العامل في تكوينه الفكري في مرحلة البصرة التي كانت قطبًا فلسفيًا وفكريًا، حيث ازدهرت فيها التيارات العقلية ونشطت حركة الترجمة، مما مكنه من الاستفادة من التراث اليوناني ولا سيما تراث أرسطو. وانتماء الجاحظ إلى فرقة المعتزلة سهَّل عليه ‘‘..البحث عن مسالك الثقافة اليونانية التي أثرت في تكوينه العقلي بجانب المنهج الإسلامي..."، ويوضح الأستاذ أحمد أمين هذا الرأي قائلا: "وأتت له الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام، ومشافهته لحنين بن إسحاق(١٤٢)وسلمويه وأمثالهما"(١٤٣)، فالجاحظ عرف التراث اليوناني لأنه جزء من التراكم الحضاري العام الذي اصطدمت به الحضارة العربية الإسلامية في نهضتها(١٤٤) .

المبحث الثالث: العقل عند الجاحظ

التزم الجاحظ في موقفه من العقل بموقف المعتزلة الذين جعلوه الأساس الأول لفكرهم والسلطة المرجعية المحددة لأصولهم ومبادئهم، فلا يخلو كتاب من كتب الجاحظ من إشارة للعقل واستخداماته، وهي إشارات متناثرة إن رُصِدت ورتبت، فهي تمكّن من استخلاص رؤية متكاملة عن تصور الجاحظ للعقل من الناحيتين النظرية والتطبيقية.

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للعقل عند الجاحظ

يرى الجاحظ أن العقل وسيلة تقييد وضبط السلوك الإنساني، بمعنى إلزامه بمبادئ معينة تحقيقًا لنظرية العدل الإلهي ونظرية الثواب والعقاب طبقًا لتصور المعتزلة. يقول الجاحظ: "وإنما سُمِّي العقل عقلاً وحِجْرًا. استنادًا لقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[١٤٥]، لأنه يزم اللسان ويخطمه ويشكله ويربثه ويقيد الفضل ويعقله عن أن يمضي فرطًا في سبيل الجهل والخطأ والمضرة كما يعقل البعير ويحجر على اليتيم"[١٤٦].

وفي نفس الاتجاه يسير الزمخشري، فيفسر قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[١٤٧] قائلا: "إنه ما من أحد إلا وكان له قلب، فلم يبق إلا أن يكون القلب هنا عقلا واعيًا يتدبر به" .

يؤكد الجاحظ أن العقل هبة الله إلى الإنسان، أي أنه غريزة إلهية في الإنسان، وهو واحد لدى جميع البشر، ويستخدم للاعتبار: أي للتَّأمّل والتَّدبّر والاستدلال بما يدرك على عِظَم القدرة وبديع الصَّنعة، ويستخدم للنَّظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها؛ ليعرف بالنَّظر فيها شيء آخر من جنسها[١٤٨]، وبالعقل يتم الانتقال من المحسوس إلى المعقول، ويتم التفكير، أي القيام بتجربة باطنيّة تنصب على النشاط الذهنيّ الداخليّ؛ فالتفكير معرفة تكون فيها الذات العارفة والموضوع المعروف شيئًا واحدًا، ويبدو هذا واضحًا في تساؤل الجاحظ: " لِمَ أعطاه–أي الله– العقل؟ ! إلا للإعتبار والتفكير، ولم أعطاه المعرفة، إلا ليؤثر الحق على هواه، ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة" [١٤٩]، ولكون العقل واحدًا في طبيعته لدى الناس جميعًا، نجد الخطاب القرآني لإعمال العقل والتدبر والنظر، يشمل الناس جميعًا، وهذا الشمول يدل على اتصاف الحجة القرآنية بالوضوح والبساطة، بحيث "يدركها العقل إدراكه لمسلمات العلوم" [١٥٠]، فهو يدركها دراكًا مباشرًا.

ويبدو مفهوم العقل ووظائفه ودلالاته عند الجاحظ عندما يتحدث في كتابه الحيوان عن منهج القرآن الكريم في دعوة العقلاء للتأمل في حال المخلوقات–على ضئآلتها وضعفها– مثل

النحل والنمل والعنكبوت فيقول:" قف على صغر النحلة وضعف أيِّدِها، ثم ارم بعقلك إلى قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٥١]، فإنك تجدها أكبر من الطود وأوسع من الفضاء، ويتسائل العاقل من الذي وضع فيها هذه الخصائص من السعي الدؤوب الشاق وتحمل المشقة وتحويل ما تمتصه إلى عسل مصفى ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾.

ويضيف الجاحظ قائلا: انظر إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١٥٢]، فما ترى في مقدار النملة في عقل الغبي، وغير الذكي؟ فانظر كيف أضاف الوادي إليها، وخَبَّرَ عن حذرها ونُصْحِها لأصحابها، وخوفها مِمَّنْ قد مُكِّن-نبي الله سليمان عليه السلام-، فإنك تجدها عظيمة القدر، رفيعة الذكر، قد عظمها في عقلك، بعد أن صّغرها في عينك" [١٥٣].

ويمكن أن نستنبط مفهومًا آخر للعقل عند الجاحظ، من خلال تقسيمه له إلى مستويين هما: الأول: وسبق توضيحه حيث قلنا أن العقل هو آلة الاعتبار والتفكير. يقول متسائلا: "فَلِمَ أعطاه العقل إلاّ للاعتبار والتفكير"[١٥٤]، والثاني: العقل قائد لأنشطة الإنسان، إن أسلم إليه أمره ومال عن الهوى. يقول الجاحظ – في مقدمة كتابه الرسائل- مخاطبًا من أهدى إليه كتابه: "وخرجت نسيج وحدك أوحديًا في عصرك، حكَّمَت وكيل الله عندك – وهو عقلك – على هواك، وألقيت إليه أزمّة أمرك. فسلك بك طريق السلامة"[١٥٥]. ولايفهم من هذا النص أنّ الجاحظ -بما أنه يعتبر العقل وكيل الله أو نائبه في الإنسان-؛ فهو صاحب تصور غيبي للعقل يقصي دور الإنسان في تأسيس مفهوم العقل، لأنّ الجاحظ يميز بين نوعين من العقول: أولهما عقل غريزي مطبوع، هو آلة الإنسان للتفكير، وهذا المستوى هو الذي قصده الجاحظ حين وصف العقل بأنه وكيل الله. أمّا النوع الثاني، فهو عقل مكتسب يتحصل من الخبرة والتجارب الإنسانية، وهو مادة تحتوي العقل الآلة. ويفضل الجاحظ العقل المكتسب إشارة إلى الدور المركزي الذي يقوم به العقل في عملية المعرفة، فحدود العقل المكتسب تختلف عن حدود العقل الفطري، يقول الجاحظ: "والعقل المولود-الفطري- متناهي الحدود وعقل التجارب لا يوقف منه على حدّ"[١٥٦]، وفضلاً عن ذلك فالعقل الفطري ناقص لا يكتمل إلا بمساعدة العقل المكتسب. يقول الجاحظ: "وقد اجتمعت الحكماء على أنّ العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلاّ بمعاونة العقل المكتسب.... وذلك أنّ العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة..."[١٥٧]

واستنادًا إلى هذا التصور يؤكد الجاحظ أنَّ مصدر المعرفة الموثوق بها هو العقل لا الحواس. يقول: "فلا تذهب إلى ما تُريك العين واذهب إلى ما يُريك العقل، الاعتماد على العقل دون الحواس. فالأمور لها حُكمان: حُكم ظاهر للحواس، وحُكم باطن للعقول والعقل هو الحجة"(١٥٨).

ويمكن تفسير موقف الجاحظ من المعرفة الحسية بأنها ظنية وليست يقينية لأنّ المعرفة المتأتية من الحواس يطرأ عليها الخطأ والكذب ضرورة، والمعرفة الناشئة من العقل قطعية وصحيحة، لأنّ العقل من بين أعضاء الانسان هو المسئول عن القيادة والصدارة. يقول الجاحظ في لهجة وثوقٍ تامٍ بالعقل وانبهار به: "ولعمري إنّ العيون لتخطئ، وإنّ الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل؛ إذ كان زمامًا على الأعضاء وعيارًا على الحواس"(١٥٩).

ونظرًا لأن العقل هو المسئول عن الفعل الإنساني من حيث الطاعة (الالتزام) والعصيان(المعصية)؛ فما هي مرتبته بين الأصول التشريعية المعروفة من وجهة نظر الجاحظ؟.. يميز الجاحظ بين مستويين هما: المستوى الأول: هو مستوى المسائل والأحكام الفقهية، والمستوى الثاني، هو الذي يخص المسائل الكلامية والدنيوية، وفي الأول: يأتي العقل في المرتبة الثالثة بعد القرآن والسُنّة المتواترة. يقول: "وإنّما يُعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق والسُنّة المجمع عليها والعقول الصحيحة والمقاييس المصيبة"(١٦٠).

ويروي الزركشي أنّ الجاحظ "حكى في كتاب "الفتيا" عن النظّام أنه قال: "الحكم يُعْلَمُ بالعقل أو الكتاب أو إجماع النقل لكنه قيل إنه عنى به التواتر"(١٦١).

أمّا المستوى الثاني، فهو الذي يخص المسائل الكلامية والدنيوية، وفيها يأتي العقل في المرتبة الأولى. واعتمادًا على مكانة العقل وترتيبه بين الأدلة، ينفي الجاحظ التشبيه عن الله بدلالة العقل أولاً ثم القرآن، يقول: "وبعد، ففي حجج العقول أنّ الله لا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، فإذا كان مرئياً فقد شبهه في أكثر الوجود، وإذا كان قولهم في النظر يحتمل ما قلتم وما قال خصمكم مع موافقة أبي صالح ومجاهد في التأويل، وكان ذلك أولى بنفي التشبيه الذي قد دل عليه العقل ثم القرآن، كان التأويل كما قال خصمكم دون ما قلتم"(١٦٢).

وقد ترتبت على منزلة العقل الرفيعة عند الجاحظ عدّة نتائج في أغلب المجالات التي درسها؛ ففي المستوى السياسي مثلاً اعتبر الجاحظ أنّ قيام السلطة لتنظيم المجتمع البشري أمر ضروري، وأنّ العقل مصدر هذه الضرورة(١٦٣).

وفي مجال التعليم، نقد الجاحظ ما كان سائداً في عصره من تركيز على الحفظ وإهمال العقل والنظر والاستنباط. يقول: "وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه وإغفال العقل من التمييز.. ، "ولأنّ مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة. والقضية الصحيحة والحكم المحمود أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه. ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه"(١٦٤).

وفي مجال تأليف الكتب سعى الجاحظ إلى أن تكون مادتها خاضعة للعقل بشكل رئيس، يقول: "فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعًا إلا أقمت لك بإزاء كل شبهة منه دليلاً، ثم لا أرسم لك من ذلك إلا الأمر المعقول في كل طبيعة"(١٦٥).

وتعتبر الأخبار الدينية والدنيوية حقلًا خصبًا لتطبيق مقياس العقل كما تصوره الجاحظ، ويتضح هذا في نقده لخبر دنيوي، فيقول: "وَرَووا عن أبي واثلة أنه زعم أنّ من الدليل على أنّ الشبوط كالبغل أنّ الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بيضاً قط، فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحًا فما أعظم المصيبة علينا فيه!..."(١٦٦).

وتعتبر حجة العقل عند الجاحظ سلطة مرجعية في المسائل المعرفية النظرية وفي مجال المعاملات والسلوك بين الإنسان والإنسان، أو بين الإنسان ومحيطه الطبيعي، من ذلك مجال الحيوان. يقول: "وليس لك في حجة العقل أن تصنع بها (الحيوانات) إلا ما كان به مصلحة كعلاج الدبر والبيطرة"(١٦٧).

وهكذا صاغ الجاحظ للعقل شرعًا يضبط حدود ما هو جائز مباح، وما هو محرم محظور قياسًا على الشرع الديني، ووجدناه نتيجة ذلك يعرض لوجوه التحريم ويذكر منها ما يحرم في العقل، يقول الجاحظ: "وقد أنبأناك كما ترى عن التحريم أنه يكون من وجوه؛ فمنها ما يكون كالكذب والظلم والغشم والغدر وهذه أمور لا تحل على وجه من الوجوه؛ ومنها ما يحرم في العقل من ذبح الإنسان الطفل، وجعل في العقول التبين بأن خالق الحيوان أو المالك له والقادر على تعويضه يقبح ذلك في السماع على ألسنة رسله" (١٦٨).

منهج الجاحظ في معرفة الحلال والحرام

يحدد الجاحظ منهجه في معرفة الحلال والحرام فيقول: "إنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق، وبالسُّنَّة المجمع عليها، والعقول الصحيحة، والمقاييس المعينة"[١٦٩] رافضًا بذلك أن يكون اتفاق أهل المدينة على شيء دليلاً على حله أو حرمته؛ لأن عِظَمَ حق البلدة لا يحل شيئًا ولا يحرمه، ولأن أهل المدينة لم يخرجوا من طباع الإنس إلى طبائع الملائكة "وليس كل ما يقولونه حقًا وصوابًا". فقد كان الجاحظ لسان حال المعتزلة في زمانه، فرفع لواء العقل وجعله الحكم الأعلى في كل شيء، ورفض من أسماهم بالنقليين الذين يلغون عقولهم أمام ما ينقلونه ويحفظونه من نصوص القدماء، سواء من ينقلون علم أرسطو، أو بعض من ينقلون الحديث النبوي[١٧٠].

الإنسان مسؤول عن استخدام ميزة العقل التي ميزه الله بها لحكمة بالغة

يؤكد الجاحظ أن: الإنسان مسؤول عن استخدام ميزة العقل التي ميزه الله بها لحكمة بالغة وتوظيفها في اجتلاب الخير وإطاعة أوامر الخالق وفي اجتناب الشر والمعصية ليفوز بالسّعادة في الدنيا والآخرة. ويقول مخاطبًا :" فإنّك مسؤول عن هذه الفضيلة لأنها لم تُجْعَل لعبًا ولم تترك هملا"[١٧١] ؛ فالعقل وسيلة الإنسان للاختيار والاختبار وأداته لتمييز الخير من الشّر وبذلك يصبح العقل ضرورة من ضروريات التكليف الإلهي نابعة من الإيمان بمسؤولية الإنسان عن أفعاله.

العقل والموجودات دليل على وجود الله

يُستخدم العقل عند الجاحظ في باب دلالة الدقيق من الخلق على وجود الله لمعرفة وتفسير الظواهر الطبيعية من حوله ومعرفة أحوال الاجتماع الإنساني والأخلاق والقيم، فيتبيّن حكمة الخالق في خلقه كما يتبيّن معنى وأسباب الخير والشّر، فيكون العقل سبيلا إلى التوصّل إلى حكمة الخالق ومعرفة ما أودعه الله في الكائنات من بدائع الخلق ووضوح البرهان، ويتضح هذا من قوله: "اعلم أنّ الجبل ليس بأدلّ على الله من الحصاة ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدلّ على الله من بدن الإنسان وأنّ صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليلة ولم تفترق الأمور في حقائقها وإنّما افترق المفكرون فيها، ومن أهمل النّظر، وأغفل مواضع الفرق، وفصول الحدود. فمن قبل ترك النّظر، ومن قبل قطع النّظر، ومن قبل النظر من غير وجه النّظر، ومن قبل الإخلال ببعض المقدّمات، ومن قبل ابتداء النّظر من جهة النّظر، واستتمام النظر مع انتظام المقدّمات– اختلفوا."[١٧٢].

ويضيف الجاحظ قائلا:" فإيّاك أن تسيء الظّن بشيء من الحيوان لاضطراب الخلق ولتفاوت التركيب ولأنه مشنوء في العين أو لأنه قليل النّفع والرّد فإنّ الذي يظن أنّه أقلّها نفعا لعلّه

أن يكون أكثرها ردّا فإلاّ يكن ذلك من جهة عاجل أمر الدنيا كان ذلك في أجل ثواب الدّين وعقابه فهما باقيان و منافع الدنيا فانية زائلة"(١٧٣).

وفي سياق حديثه عن آلة البيان: " وهذه الخصال هي :اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعقد؛ والخصلة الخامسة ما أوجد من صحّة الدّلالة، وصدق الشهادة ووضوح البرهان، في الأجرام الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تتبيّن ولا تحسّ، ولا تفهم ولا تتحرّك إلّا بداخل يدخل عليها، أو عند ممسك خلّي عنها، بعد أن كان تقييده لها "(١٧٤).

الله لا يخلق شيئًا عبثًا

يتحدث الجاحظ عن **الحكمة من خلق بعض الحشرات** ليتأمل العقلاء فيما يقرأون ويسمعون:" فأمّا خلق البعوضة والنّملة والفراشة والذّرّة والذّبّان والجعلان، واليعاسيب والجراد- فإياك أن تتهاون بشأن هذا الجند، وتستخف بالآلة التي في هذا الذّرء-النسل والخلق-؛ فربّت أمة أجلاها عن بلادها النمل، ونقلها عن مساقط رؤوسها الذّرّ، وأهلكت بالفأر، وجردت بالجراد، وعذّبت بالبعوض، وأفسد عيشها الذّبّان، فهي جند إن أراد الله عزّ وجلّ أن يهلك بها قوما بعد طغيانهم وتجبّرهم وعتوّهم؛ ليعرفوا أو ليعرف بهم أنّ كثير أمرهم، لا يقوم بالقليل من أمر الله عزّ وجلّ. وفيها بعد معتبر لمن اعتبر، وموعظة لمن فكّر، وصلاح لمن استبصر، وبلوى ومحنة، وعذاب ونقمة، وحجّة صادقة، وآية واضحة، وسبب إلى الصّبر والفكرة. وهما جماع الخير في باب المعرفة والاستبانة، وفي باب الأجر وعظم المثوبة"(١٧٥).

العقلاء يحترسون من الذين لايراقبون الله

يدعو الجاحظ العقلاء إلى الاحتراس من الذين لا يراقبون الله لتعطيلهم عمل العقل فهم خطر على أنفسهم وعلى غيرهم. يقول:" احترس كلّ الاحتراس، ممن لا يراقب الله تعالى؛ فإنه لا يخلو من أحد أمرين، إمّا أن يكون لا يعرف ربّه مع ظهور آياته ودلالاته، وسبوغ آلائه، وتتابع نعمائه، ومع برهانات رسله، وبيان كتبه؛ وإمّا أن يكون به عارفًا وبدينه موقنًا، وعليه مجترئًا، وبحرماته مستخفّا. فإن كان بحقّه جاهلا فهو بحقّك أجهل، وله أنكر. وإن كان به عارفًا وعليه مجترئًا فهو عليك أجرأ، ولحقوقك أضيع ولأياديك أكفر(١٧٦).

المبحث الرابع: إشكالية الشك عند الجاحظ بين النظرية والتطبيق

تمهيد

أسس الجاحظ منهجًا علميًا للوصول إلى اليقين، يقوم على خطوات دقيقة وأسس ومعايير محددة في إلتقاط الأخبار ونقدها والتحقق من صحتها بهدف حل المشكلات التي يبحثها بقصد تفسيرها والتحكم فيها والتنبؤ بها.

مصادر المعرفة عند الجاحظ

أخذ الجاحظ – في كتابه الحيوان مثلا– من مصادر مختلفة منها: الملاحظة والمعاينة، وأقوال أهل العلم من الأطباء والعلماء، وأقوال أصحاب الخبرة من الأعراب الحرازين والحواءين والصيادين، والشعر الذي كتبه الشعراء عن الحيوان، ثم كثرة القراءة والنقد، ثم التراث اليوناني ككتاب ''الحيوان'' لأرسطو وما خلّفه من مقولات فلسفية ومنطقية، فالجاحظ '' لم يكن جاهلا بوجود كتب أرسطو، فيذكر (كتاب المنطق)، ويطلق على أرسطو أكثر من مرة في كتابه الحيوان: (صاحب المنطق) ويوجه كثيرًا من النقد لآرائه: "ولليونانين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكئ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه"[١٧٧].

وسائل المعرفة العلمية اليقينية عند الجاحظ

حدد الجاحظ عدة وسائل للوصول إلى المعرفة العلمية وهي:

الخبر القاهر: الذي يقصد به الرواية الموثوق براويها التي لا شك في صحتها، يقول: "إذا لم يأتنا في تحقيق الأخبار شعر شائع أو خبر مستفيض لم نلتفت لفتة"[١٧٨].

والعيان الظاهر: ويقصد به المعاينة والتجربة أما المعاينة، فهي ترتكز أساسًا على ملاحظة الحيوان–مثلا– في طرق عيشه وطباعه وغرائزه. ويلخص ذلك قوله: " وليس يشفيني إلا المعاينة"، والتجربة فتكون عادة لتصحيح الخبر وتقريره إن ثبتت استقامته، والعقل المستدل: هو الحجة النهائية والمرجع الأخير في تصحيح الأخبار وتصويب المعاينة، لأن الحواس تخطئ. فبالعقل يكون اليقين، ويبقى العقل المستدل السلطة الخيرة القادرة على تأسيس المعرفة.

ومن نصوص الجاحظ تتبينُ لنا مجموعةٌ من النِقاط المهمَّة التي تفصح عن أصالة فكره وتوضح ملمحًا من ملامح عبقريته، فهو لم يرد الشَّك لمحض الشَّك، "ولا يقبل أن يكون الشَّكُ كيفما اتفق ولا في كلِّ أمرٍ على حد سواء"؛ إن الشَّك الجاحظي شك منهجي مؤقت يستخدمه

لبناء الإنسان، ولايختلف عن الشَّك المنهجي عند كل من الإمام أبي حامد الغزالي(ت٥٠٥هـ)، ديكارت(ت١٦٥٠م)، فثلاثتهم أرادوا الشَّك طلبًا للحقيقة اليقينية؛ التي لا تقبل تفاوتًا في الدرجات.

أسباب اليقين عند الجاحظ

يحدد الجاحظ أسباب اليقين فيما وصل إليه من علم، فيقول:" ولم نذكر، بحمد اللّه تعالى، شيئاً من غرائب الحيوان، وطريفة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهد من كتاب مُنْزِلٍ، أو حديثٍ مأثور، أو خبرٍ مستفيض، أو شعرٍ معروف، أو مَثَلٍ مضروب، أو يكون ذلك ممّا يشهد عليه الطبيب، ومَنْ قد أكثر قراءة الكتب، أو بعض مَنْ قد مارَس الأسفار، وركب البحار، وسكنَ الصَّحارِي واستَذْرى بالهضاب، ودخل في الغِياضِ[١٧٩]، ومشى في بطون الأودية[١٨٠].

ويبلغ الجاحظ ذروة حذره وعدم إطمئنانه لكلام الآخرين؛ فيشك فيما يرويه البحريون والسماكون رغم أنهم أصحاب تجربة، فيقول:" كيف أسكُنُ – بعد هذا: أي بعد ما أثبت هو بمعاينته عدم دقة ملاحظة أحدهم لنوعٍ من السمك– إلى أخبار البحْريِّين، وأحاديث السمَّاكين، وإلى ما في كِتابِ رَجُل لعلَّه أنْ لو وجد هذا المترجم أن يُقِيمَهُ على المِصْطبة، ويبرأ إلى النَّاس من كذبه عليه، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته"[١٨١].

النقد عند الجاحظ يقوم على العلم والمعرفة

يوجه الجاحظ نقدًا للآخرين قائمًا على العلم والمعرفة، فيقول:" وقد رأيْنا أقواماً يدَّعُون في كتبهم الغرائب الكثيرة، والأمور البديعة، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءاتهم، ويُعرِّضون أقدارهم، ويسلِّطون السُّفهاء على أعراضهم، ويجترُّون سُوء الظَّنِّ إلى أخبارهم، ويحكِّمون حُسّاد النِّعم في كتبهم، ويمكِّنون لهم من مقالتِهم، وبعضهم يتّكل على حُسْن الظَّنِّ بهم، أو على التسليم لهم، والتقليد لدعواهم، وأحسنهم حالاً من يُحِبُّ أن يُتفضَّلَ عليه ببسط العُذْر له، ويُتكلّف الاحتجاجُ عنه، ولا يبالي أن يُمَنّ بذلك على عقبه، أو من دان بدينه، أو اقتبس ذلك العلم من قِبل كُتُبه"[١٨٢].

ويؤكد الجاحظ ثقته في منهجه والعلم الذي أدى إليه خاصة أنه لا يتعارض مع رأي العلماء، ويؤكد تحمله المسئولية في إثبات صحة ما وصل إليه من العلم وذكر الحجج والبراهين المؤيدة لرأيه؛ فيقول: "ونحن...إذا استنطقْنا الشَّاهد، وأحَلْنا على المثل، فالخصومة حينئذٍ إنَّما هي بينهم–أي المخالفين– وبينها–أي الحقيقة، إذْ كنّا نحنُ لم نستشهد إلاّ بما ذكرنا، وفيما ذكرنا مقنعٌ

عند علمائنا، إلاّ أن يكون شيءٌ يثبتُ بالقياس، أو يبطلُ بالقياس، فواضعُ الكتاب ضامنٌ لتخليصه وتلخيصه، ولتثبيتِهِ وإظهار حجّته"(١٨٣).

أسباب أخذ الجاحظ بعض العلم من الأعراب

يبرر الجاحظ أسباب أخذه بعض العلم من الأعراب، أنهم خَبَرُوا الحياة ولاحظوها، وربطوا بين الأشياء وبعضها ربط المعاين المعتاد وليس ربط العالم المتحقق، فيقول: "وإنَّما أعتمد في مثل هذا على ما عند الأعراب، وإن كانوا لم يَعْرِفوا شكل ما احتِيجَ إليه منها من جهة العناية والفلاية، ولا من جهة التذاكر والتكسُّب، ولكن هذه الأجناس الكثيرة، ما كان منها سبعاً أو بهيمةً أو مشترك الخلْق، فإنّما هي مبثوثة في بلاد الوحْش: من صحراء، أو وادٍ، أو غائط، أو غيضة، أو رملةٍ، أو رأس جبل، وهي في منازلهم ومناشئهم، فقد نزلوا بينها، وأقاموا معها، وهم أيضاً من بين النّاس وحشٌ، أو أشباه الوحش. وربَّما؛ بلْ كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب، وباللدغ واللَّسع، والعضّ والأكل، فخرجتْ بهم الحاجة إلى تعرُّف حالِ الجاني والجارح والقاتل، وحال المجنيِّ عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطَّلَبُ والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة، ولطول وُقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالدَّاء والدواء"(١٨٤).

ويبدو منهج الشك عند الجاحظ واضحًا في توقفه عن إصدار الحكم في مسألة الأرْوِيَّة فيقول مخاطبًا مَنْ أهدى له كتاب الحيوان: "ولم أكتب هذا لتقرَّ بهِ، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبني الإنكار له، ولكن ليكنْ قلبك إلى إنكاره أميلَ"(١٨٥).

وتأكيدًا لمكانة الشك وأهميته في منهج الجاحظ للوصول إلى اليقين والمعرفة الحقة التي لا تقبل الشك، يخصص الجاحظ في كتابه الحيوان بابا بعنوان: (مواضع الشك واليقين)، وفيه نلاحظ أن الشك من الأسس العلمية التي يرتكز عليها الجاحظ في نقده وتمحيصه للأخبار والروايات، بل إنه يدعو صراحة إلى تعلم هذا المنهج في البحث العلمي فيقول: ‘‘اعرف مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشَّكّ في المشكوك فيه تعلُّمًا، فلو لم يكن في ذلك إلاّ تعرُّف التوقُّف ثمَّ التثبُّت، لقد كان ذلك ممَّا يحتاج إليه. ثمّ اعلم أنّ الشكّ في طبقاتٍ عند جميعهم، ولم يُجْمعوا على أن اليقين طبقاتٌ في القوَّة والضعف’’، و‘‘منازعة الشاك والجاحد تكشف أن الشُّكّاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود’’. ‘‘والشاك أقربُ من

الجاحِد، ولم يكنْ يقينٌ قط حتى كان قبله شكّ، ولم ينتقل أحدٌ عن اعتقادٍ إلى اعتقاد غيره حتّى يكون بينهما حالُ شكّ"[١٨٦].

ويفرق الجاحظ بين موقف العوام والخواص من الشك، فيقول: "والعوامُّ أقلُّ شكوكًا من الخواص، لأنَّهم لا يتوقَّفون في التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلاّ الإقدامُ على التَّصديق المجرّد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشَّكّ التي تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سُوء الظنِّ وحُسن الظّن بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب"[١٨٧].

خطوات الجانب النظري للمنهج عند الجاحظ:

[١] الشك في الحواس والمعرفة المترتبة عليها

يؤكد الجاحظ أن الإنسان يحتاج دائمًا للإطلاع على معارف السابقين لأن معرفة الفرد محدودة، ويرى أن " الإنسان لا يعلمُ حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه؛ ولا يعلمُ، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلَف إليه، حتى يكون الإنفاقُ عليه من ماله، ألذَّ عندَه من الإنفاق من مال عدوِّه، ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب، ألذَّ عنده مِن إنفاق عُشَّاق القيان، والمستهتَرين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضِيّاً، وليس يَنتفِع بإنفاقِه، حتَّى يؤثِر اتِّخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابي فرسَه باللبن على عياله، وحتَّى يؤَمِّل في العلم ما يؤَمِّل الأعرابي في فرسه، – حرص الزنادقة على تحسين كتبهم" [١٨٨]، ورغم ربطه بين العلم والسماع والكتابة والإنفاق على العلم ،إلا أنه لم يُسَلِّم بما يسمع ولم يطمئن إلى العلماء مهما كان مقدار علمهم، لأن التقليد والحفظ قاصران على إدراك الحقيقة. وعنده لابد من إخضاع كافة المعلومات الناتجة عن عمل الحواس للفحص والشك والنقد الموضوعي القائم على عمل العقل.

ويتحفظ الجاحظ على معطيات الحواس، لأن الحواس قد تخطئ وقد تخدع صاحبها، ويقرر أن العقل وحده هو الذي يُعَوَّل عليه في الأحكام، وأنه هو القادر على تحرير الصادق منها من المخادع "[١٨٩] ويعبر عن هذا الرأي بقوله: "ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب وما الحكم القاطع إلا للعقل، إذ كان زمامًا على الأعضاء وعيارًا على الحواس" [١٩٠].

ويؤكد الجاحظ مبدأ الشك في الحواس والمعارف المترتبة عليها أكثر من مرة لأنه أصبح عنده من المسلمات، فيقول: "وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة"[١٩١]، أي أنه يدعو إلى عدم التسليم المطلق بالحواس التي تشكل عائقًا

إدراكيًا، ويحث في المقابل على إعمال العقل وجعل كل الظواهر والمعاينات محط شك واختبار وتمحيص للظفر باليقين، ويصبح الشك بذلك ترجمة فعلية للعقل.

والجاحظ ''يعلق على المعاينة أهمية كبيرة في الوصول إلى اليقين، باعتبارها نقطة انطلاق في البحث العلمي، فلا يطمئن إلى أمر ما، إلا بعد أن يراه بأم عينيه ويتأكد منه، إذ كل قول: ''يكذبه العيان فهو أفحش خطأ، وأسخف مذهبا، وأدل على معاينة شديدة، أو غفلة مفرطة''(١٩٢).

فالجاحظ يشير إلى أن الحواس قد تكون خادعة أحيانًا، وينصح بإخضاع ما تريه العين إلى رقابة العقل. ذلك أن للأمور حكمين: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة، فلهذا ينصح بالذهاب إلى ما يريه العقل لا ما تُريه العين(١٩٣).

إن النتيجة التي توصل إليها الجاحظ تبرز مدى إعلائه للعقل مقابل الحواس، وهذا يجعله يشكك في كل أمر حتى يبلغ فيه اليقين، محاولا تجنب الأفكار المسبقة عند النظر إلى الأمور قدر المستطاع، ومن هنا كان نقاشه في شؤون كثيرة سمعها ولم يقبلها عقله، ولذلك حاج "أرسطو" في قضايا رأى فيها رأيًا غير رأيه، بل ونقد أدعياء العلم في عصره وأصحاب السخافات الرائجة والأساطير''(١٩٤).

[٢] إخضاع المعطيات للشك والنقد

يعتبر الجاحظ الشك وسيلة من وسائل اكتساب العلم اليقيني، من خلال إخضاع كل المعطيات التي يريد دراستها لعمليتي الشك والنقد، إذ لا بد من النظر والاعتبار حسب ما يدعو إليه الجاحظ، وذلك لا يحدث باستخدام الحواس الظاهرة، أي بفتح العين واستماع الآذان، وإنما "بالتوقف من القلب والتثبت من العقل، وبتحفيظه وتمكينه من اليقين والحجة الظاهرة"(١٩٥)، ''...فالبراهين والأدلة التي يصل الإنسان بها إلى المعرفة اليقينية هي من إعمال العقل، كما أن الفصل بين الصحيح والباطل فيما ينتج عن الحواس يرجع إلى العقل''(١٩٦).

وقد أشار الجاحظ إلى عدد من الشروط الواجب توافرها في كل باحث أثناء دراسته لموضوع ما، وهي: أن يحسن التأمل، وأن يكون ثاقب النظر والذهن(١٩٧)، وأن يتوخى الاعتبار والتنبيه والبحث، وأن يتريث في الأخذ بمعطيات الحواس، وأن يخضع كل المعطيات للشك والنقد، وهو الأساس الذي تنبني عليه الحقائق ''إذ إنه يُعَوِّد على التوقف والتثبت من الأمور ويدفع خطر التسرع في قبول الأخبار والتعرض بالتالي إلى الخطأ، وأن يمارس الجدل عن وعي بأدواته وأهميته.

ويجب أن يستفيد الباحث من حالة الشك في التريث والتمهل والتوقف، والعمل على اكتشاف العلل والأسباب الحقيقية التي تزيل الشكوك وتؤدي إلى برد اليقين" (١٩٨).

يعتمد منهج الشك عند الجاحظ على النزعة العلمية المنطقية التي تهدف إلى تفهم الواقع المادي المحسوس ، وتفهم معطيات العقل بواسطة التعريف والتعليل والاستدلال والقياس، وذلك بغية التحقق من هذا الواقع والإحاطة به على نحو يقيني.

[٣] الإنصاف والحياد والموضوعية

يؤكد الجاحظ على الإنصاف العلمي وعدم التحيز مع ضرورة استخدام الشك باعتباره منهجًا من مناهج البحث، وللوصول إلى اليقين يتحدث عن الإنصاف الذي يشمل بعدين هامين هما: الأول: الانصاف الذاتي: أي أن الباحث ملزم بأن يكون منصفًا لنفسه، وهذا يقتضي منه أن يعطي لذاته حجمها العلمي الطبيعي، فلا يضخمها لتأخذ أكبر من حجمها، ولا يتضاءل بها فيضعها دون مكانتها العلمية الصحيحة، والثاني: الانصاف تجاه ما يتلقاه الباحث من معارف، وهذا يتطلب من الباحث أن يتهم في نفسه أمرين:

أ- أن يتهم أولا ما ألفه أي ما اعتاد عليه، لأن أُلفة الشيء تجعله في نفس صاحبه في منزلة الحقيقة التي لا تقبل جدلا أو شكًا.

ب- أن يتهم ثانيًا ما كان ميالا له بعاطفته أو بطبعه من آراء واتجاهات وأحكام، لأن الهوى يكون مقارنًا للميل وللعاطفة، ومنطق الهوى يجانب في كثير من الأحيان منطق العقل. يقول الجاحظ في ذلك: "وأنا أزعُمُ أن الناس يحتاجون بَدِيّاً إلى طبيعةٍ ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف، وأوَّل ما ينبغي أنْ يبتدئ به صاحبُ الإنصافِ أمرَه ألاَّ يعطَى نفسَه فوقَ حقها، وألاَّ يضعها دونَ مكانها، وأن يتحفظَ من شيئين؛ فإن نجاتَه لا تتمّ إلاّ بالتحفظ منهما-أي الحذر منهما-: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تُهمة السَّابِقِ إلى القلب"(١٩٩).

[٤] طبقات الشك بين القوة والضعف

يقول الجاحظ: "اعلم أنّ الشكّ في طبقاتٍ عند جميعهم ولم يُجْمعوا على أن اليقين طبقاتٌ في القوَّة والضعف(٢٠٠)."فالشك لا يأخذ صورة واحدة ووحيدة، وإنما قد يتدرج في طبقات من القوة والضعف وذلك بخلاف اليقين الذي يمثل درجة واحدة من القوة".

وقد استفاد الجاحظ هذه الملاحظة الدقيقة حول الشك من دراسته لأنواع الحيوان، إضافة إلى مناقشته لآراء الآخرين التي كان يعرضها في كتبه ورسائله المختلفة، فهو يوظف - منهج الشك كمنهج عقلي علمي- توظيفًا متكاملا يتدرج فيه من درجة الحذر والتهيب في الحكم على صدق

بعض الأشياء أو الآراء، إلى أقصى درجات التكذيب، وذلك عبر درجات من الشك، ومن أمثلة ذلك:

(أ) الشك الضعيف: ويتضح في قوله: ''وسمعت حديثا من شيخ من ملاحي الموصل، وأنا هائب له'' (٢٠١).

(ب) الشك القوي: ويتضح في رده على ما جاء في كتاب لشخص يدعى (عبيد بن الشونيزي) مؤكدًا أنه لا يكلف نفسه حتى عناء نقده : ''ولكن موضوع البياض من هذا الكتاب – أي كتاب الحيوان للجاحظ – خير من جميع ما كان لعبيد''(٢٠٢).

ويستقصي الجاحظ فئات الناس –كما يستقصي درجات الشك– من حيث تعاملهم مع الشك وطريقة أخذ أنفسهم به. فيؤكد أن هناك فئتين من الناس متناقضتين في نظرتهما إلى الشك، معتبر أنهما على غير الصواب، الفئة الأولى: تأخذ الأمور بالتسليم دون تكليف نفسها عناء التبين، فأصحابها دائما أقرب إلى تصديق ما يسمعون دون تمحيص، والفئة الثانية: يأخذ أصحابها أنفسهم بالشك الذي هو مجرد تكذيب، وهذه الفئة في استماعها لبعض الغرائب لا تكلف نفسها التثبت والتمحيص، بل تسارع إلى تكذيب ما تسمع، توهمًا أن ذلك فضيلة في البحث. والفئتان تلغيان الحالة الوسطى الواقعة بين التصديق والتكذيب، والتي تعبر عن حالة الشك العلمي المنهجي، يقول الجاحظ موضحًا ذلك : ''وأكثر الناس لا تجدهم إلا في حالتين : إما في حالة إعراض عن التبين وإهمال للنفس، وإما في حالة تكذيب وإنكار وتسرع إلى أصحاب الاعتبار وتتبع الغرائب والرغبة في الفوائد، ثم يرى أن له بذلك التكذيب فضيلة، وأن ذلك من باب التوقي وجنس من استعظام الكذب، وأنّه لم يكن كذلك إلّا من حاقّ الرّغبة في الصّدق. وبئس الشيء عادة الإقرار والقبول. والحقّ الذي أمر الله تعالى به ورغب فيه، وحثّ عليه أن ننكر من الخبر ضربين :أحدهما ما تناقض واستحال، والآخر ما امتنع في الطبيعة، وخرج من طاقة الخلقة. فإذا خرج الخبر من هذين البابين، وجرى عليه حكم الجواز، فالتدبير في ذلك التثبت وأن يكون الحقّ في ذلك هو ضالّتك، والصّدق هو بغيتك، كائنا ما كان، وقع منك بالموافقة أم وقع منك بالمكروه. ومتى لم تعلم أنّ ثواب الحقّ وثمرة الصّدق أجدى عليك من تلك الموافقة لم تقع على أن تعطي التثبت حقّه'' (٢٠٣).

ويؤكد الجاحظ أن الشك الذي يمثل المرحلة الوسطى بين التصديق والتكذيب هو سمة لخواص الباحثين، لأنهم عكس ما عليه العوام الذين هم في الأصل أقل شكوكا، وذلك لأن الأمور في نظرهم لا تعدو في أغلب الأحيان التصديق المجرد أو التكذيب المجرد لأنهم ألغوا المرحلة

الوسطى من الشك. ويشير الجاحظ إلى ذلك بقوله : ‘‘والعوام أقل شكوكا من الخواص لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم فليس عليهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو الإقدام على التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حالات الشك التي تشتمل على طبقات الشك وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب’’[٢٠٤].

ويستدرك الجاحظ بخصوص عبارة "على مقادير الأغلب" بأنها لاتصلح قاعدة للشك عند العامة فيقول: "وسمع رجل، ممّن قد نظر بعض النظر، تصويب العلماء لبعض الشكّ، فأجرى ذلك في جميع الأمور، حتّى زعم أنّ الأمور كلها يعرف حقها وباطلها بالأغلب"[٢٠٥]. أي أنه فعل مثل المتكلمين ولكنه أخطأ في الفهم والحكم، ولذلك لم يترك أثرًا له يذكر رغم أنه كان ينتحل الاستطاعة، أي يقول بها.

ويؤكد الجاحظ أن في الحياة أمورا تحتمل التصديق والتكذيب، وفي مثل هذه الأمور يتم استخدام الشك بغية الوصول إلى الحقائق اليقينية.

الجانب التطبيقي للمنهج عند الجاحظ:

لم يكتف الجاحظ بالحديث عن خطوات الشك من الناحية النظرية، وإنما سعى إلى تطبيقها على كل الأخبار والروايات التي يصل لها – سواء المسموعة أم المكتوبة– في الثقافة العربية والثقافات الأخرى، ونوضح عناصر هذا الجانب العملي فيما يلي:

[١] الشك في صدق الروايات والأخبار:

يمارس الجاحظ أسلوب الشك المنهجي في بعض الروايات من خلال تشكيكه بصدق الراوي وذلك لإسقاط روايته، أو من خلال كشف كذب هذا الراوي، وبالتالي إثبات الكذب في صحة الرواية وبطلانها، فيدفع القارئ والمستمع إلى عدم التصديق ومتابعته في البحث عن اليقين، ومن أمثلة ذلك: شكه بأقوال طبيبين ‘‘زعما أن جيفة البعير أنتن الجيف وعزا الجاحظ رأيهما إلى عصبيتهما على العرب وعلى المسلمين. فقال ‘‘وزعم لي سلمويه وابن ماسويه مطبا الخلفاء أن ليس على الأرض جيفة أنتن نتنًا ولا أثقب ثقوبًا من جيفة بعير، فظننت أن الذي وهمهما ذلك عصبيتهما عليه وبغضهما لأربابه، ولأن النبي ﷺ هو المذكور في الكتب براكب البعير’’[٢٠٦].

وقد يلجأ الجاحظ إلى التشكيك بالراوي فيصفه بالجهل وقلة الحيلة، ثم يلجأ بعد ذلك إلى مناقشة الخبر بطريقة علمية متدرجة، ليؤكد شكه في صحة الخبر، فقد أورد الجاحظ خبرًا عن شخص يدعى (المكي الطبيب) فيقول: ‘‘وقال لي المكي مرة إنما عمر الذبان أربعون يومًا، قلت:

هكذا جاء في الأثر؟". وكنا يومئذٍ بواسط في أيام العسكر، وليس بعد أرض الهند أكثر ذبابًا من واسط، ولربما رأيت الحائط وكأن عليه مسحا شديد السواد من كثرة ما عليه من الذبان، فقلت للمكي : أحسب الذبان يموت في كل أربعين يومًا وإن شئت ففي أكثر، وإن شئت ففي أقل، ونحن كما ترى ندوسها بأرجلنا، ونحن ههنا مقيمون من أكثر من أربعين يوما بل منذ أشهر، وما رأينا ذبابا واحدا ميتا فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الأحياء، قال: الذبابة إذا أرادت أن تموت ذهبت إلى بعض الخربات، قلت : فإنا قد دخلنا كل خربة في الدنيا، وما رأينا فيها قط ذبابا ميتا''[٢٠٧]. ثم يصف الجاحظ محدثه المكي ليؤكد الشك في قصته وتكذيبه: ''وكان المكي طيبا طيب الحجج ظريف الحيل، عجيب العلل، وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام، ولم يُحكم شيئا قط''[٢٠٨].

[٢] الشك في بعض القصائد الشعرية:

تعتبرمسألة انتحال الشعر –أي كتابته–من بين القضايا النقدية التي استأثرت باهتمام النقاد القدامى، وقد أسهم الجاحظ فيها متفحصًا ومشككًا في نسبة بعض القصائد والأبيات لقائليها، وقد أشار إلى ذلك بقوله: ''ولقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر[٢٠٩]والأصمعي[٢١٠] أرجازًا[٢١١] كثيرة، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء'' [٢١٢]ولهذا كان يعرض لبعض القصائد بالنقد ويثبت أنها لغير من نُسبت له مستندا إلى حجج موضوعية، من ذلك تعليقه على بيت شعر للأفوه الأودي[٢١٣] هو: كَشِهَاب القذفِ يَرْمِيكُم بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ للحَرْب نَار[٢١٤]

فيقول : ''وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي فلعمري إنه لجاهلي، وما وجدنا أحدًا من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة، وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم، وهو جاهلي، ولم يدع هذا قط أحد إلا المسلمون، فهذا دليل على أن القصيدة مصنوعة'' [٢١٥].

لقد ناقش الجاحظ صحة نسبة القصيدة بمنطق الناقد الذي يمحص المعنى ويثبت أن المعنى الذي يشتمل عليه البيت هو معنى إسلامي ولم يسبق لأحد قبل الإسلام أن أتى به، وهذا ما يجعله يعتبر القصيدة منحولة وأنها ليست لمن نسبت إليه، ويعزز أقواله بآراء آخرين من النقاد وصلوا إلى ما وصل إليه

[٣] الشك فيما روي من أخبار عن أرسطو:

على الرغم من تأثر الجاحظ بالفلسفة اليونانية عموما والفكر الأرسطي خصوصا، إلا أنه رفض الكثير من آراء أرسطو لأنها تتعارض مع التجارب التي أجراها ومشاهداته لعدد من الكائنات والظواهر الطبيعية. فقد أخضع آراء أرسطو للبحث والتحليل والتجربة والاستفسار، فتوصل إلى آراء مخالفة للتي جاءت في كتاب أرسطو عن الحيوان. يقول في هذا الصدد'' : وقد زعم صاحب المنطق: ''أن السمكة لا تبتلع شيئا من الطعم إلا ببعض الماء، فأي عيان على هذا؟''[٢١٦] . وقد يسخر من كلام أرسطو لأنه بلا دليل من الملاحظة والتجربة، فيقول: ''وقد أكثر في هذا الباب أرسطاطاليس، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه. ولقد قلت لرجل من البحرين: زعم أرسطاطاليس أن السمكة لا تبتلع الطعم أبدا إلا ومعه شيء من ماء، مع سعة المدخل، وشرّ النفس[٢١٧]، فكان من جوابه أن قال لي : ما يعلم هذا إلا من كان سمكة مرة، أو أخبرته به سمكة، أو حدّثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى، فإنهم كانوا صيادين، وكانوا تلامذة المسيح''[٢١٨] ، ومثل ذلك أيضا الخبر التالي : ''وزعم صاحب المنطق-أي أرسطو- أن أصنافًا أُخر من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتاج مثل الذئاب تسفد الكلاب، في أرض رومية قال: وتتولد أيضا كلاب سلوقية من ثعالب وكلاب'' [٢١٩].

ويعلق على ذلك محاولا نفي هذه الدعوى عن أرسطو، لتصوره أن مثلها لا يجوز عليه لأنها غير ثابتة علميا، ثم يؤكد رفضه للدعوى إن صح أن أرسطو كان قالها: ''وما نظن بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول'' [٢٢٠]

[٤] الملاحظة الطبيعية السببية للواقع والظواهر

ويذكر الجاحظ واحدة من الخطوات الهامة في منهجه وهي: ملاحظ الطبيعة والواقع المحيط وربط الظواهر ببعضها ربطًا سببيًا بحكم الاعتياد وبحكم الحاجة والرغبة في النجاة من المجهول، ثم التحقق من هذا الربط عند تكرار حدوث الظواهر، ويشرح هذا الرأي مبررًا سبب أخذه عن الأعراب، بعض العلم الخاص بالنجوم والكواكب والأمطار والنبات والتربة،" الأعراب عرفوا الآثار في الأرض والرَّمل، وعرفوا الأنواءَ ونجوم الاهتداء، لأنَّ كلَّ من كان بالصَّحاصح الأماليس[٢٢١] – حيث لا أمارة ولا هادي، مع حاجته إلى بعد الشَّقّة – مضطرٌّ إلى التماس ما ينجيه ويُؤْديه. ولحاجته إلى الغيث، وفِراره من الجدْب، وضنِّه بالحياة، اضطرته الحاجة إلى تعرُّف شأنِ الغيث. ولأنه في كلِّ حالٍ يرى السَّماء، وما يجري فيها من كوكب، ويرى التَّعاقب بينها، والنّجوم الثوابت

فيها، وما يسير منها مجتمعًا وما يسير منها فاردًا، وما يكون منها راجعًا ومستقيمًا" ، " وأكثرُ سببِ ذلك كلِّه – بعد فَرْط الحاجة، وطول المدارسة – دِقّةُ الأذهان، وجودة الحفظ" ، " ولا ينبغي لمن قلَّ علمُه أن يدعَ تعليم من هو أقلُّ منه علماً"[٢٢٢]. أي أن الجاحظ يعترف للأعراب بدورهم في ملاحظة الطبيعة ورصد متغيراتها ومعرفة أسبابها، وهذا يدل على ما تميزوا به من الأناة والصبر وطول المدارسة ودقة الأذهان وجودة حفظها لما ترى وتسمع وتعرف، وعلى العلماء أن يعترفوا بفضلهم، ويتحققوا من صحة استنتاج الأعراب وعدم ترك ما وصلوا إليه من ملاحظات حتى وإن كان العلماء أكثر علمًا.

[٥] الدقة فيما يرى ويسمع وفي تتبع أصول الأشياء والمقارنة

يتحرى الجاحظ الدقة فيما يرى ويسمع وينقل ويكتب وينقد، فيقوم بالملاحظة والمقارنة والبحث في أصول الأشياء والكائنات، ولا يقبل الخبر دون تمحيص، ويظهر هذا واضحًا في حكايته عن "الدَّسَّاس"[٢٢٣]؛ فيقول: "ولو كانت الدَّسَّاس من أصناف الحيّات لم نخصَّها من بينها بالذِّكر، ولكنها وإن كانت على قالب الحيَّات وخَرْطها، وأفرغت كإفراغها وعلى عَمُود صُورها، فخصائصها دون خصائصها، كما يناسبها في ذلك الحُفَّاث[٢٢٤] والعِرْبِد[٢٢٥]، وليسا من الحيّات، كما أن الدساس ليس من الحيّات، لأنّ الدّسَّاس ممسوحة الأذن، وهي مع ذلك ممَّا يلد ولا يبيض، والمعروف في ذلك أنّ الولادة هي في الأشرف(أي الظاهر الأذنين)، والبيض في الممسوح(أي ليس بظاهر الأذنيين)"[٢٢٦] .

ملاحظات على مشكلة الشك عند الجاحظ

أردنا من هذه الملاحظات التأكيد على أن الجاحظ كان على وعي بأبعاد منهج الشك المنهجي وكان قاصدًا تطبيقه في شقيه النظري والعملي في كثير من الرؤى الفلسفية والأدبية واللغوية...، وهذه الملاحظات هي:

الملاحظة الأولى: دقة استخدام الجاحظ لصيغتي " زعم– قال":

كان الجاحظ دقيقا في استخدامه لصيغتي: ''زعم'' و"قال"؛ فالأولى تعني اِدَّعَى، أَي قَالَ قَوْلاً حَقّاً أَوْ باطِلاً، وهي صيغة تُسْتَعْمَلُ في الشَّكِّ والظَّنِّ وَما يُعْتَقَدُ أَنَّهُ كَذِبٌ، والثانية تعني: تكلم عما في نفسه وأخبر به وحكى، واحتمل كلامه الصدق أو الكذب[٢٢٧]، وهذ يؤكد أن آراء الجاحظ النظرية حول الشك ارتبطت بموضوعات متعددة ومدعمة بنماذج تطبيقية متناثرة، وكان الجاحظ ينوع أساليب الشك بما يتناسب مع تنوع الأخبار والموضوعات التي كان ينقدها. فكان

يستفتح الأخبار المغلوطة أو الأسطورية أو تلك التي تحتوي على الخرافاتأو تلك التي لايقبلها عقله بقوله: زعم فلان، وزعموا، ثُمَّ يُعقِّب بتحليله ونقده لها بعقل راجح واعٍ، وأسلوب سهل متدرج موضحًا مصادره المتنوعة مستخدمًا مفردات اللغة والسخرية والفكاهة والحكاية.

وكان الجاحظ يكتفي أحيانا برواية ما يرويه مشفوعًا بإحدى هاتين الصيغتين"زعم" أو "قال" أو بكلتيهما، وقد يقرنهما أحيانا بألوان من أساليب النقد تدعم وجهة نظره في الشك، وكان يستمد هذه الأساليب من طبيعة الخبر أو من طبيعة الرواية التي يساق من خلالها، ومن أمثلة استخدامه لصيغة (زعم) وحدها قوله: ''والعامة تزعم أن الغول تتصور في أحسن صورة، إلا أنه لا بد أن تكون رجلها رجل حمار. ''(٢٢٨) ومن استخدامه لصيغة (قال) وحدها قوله : ''ويقال إن الذبان لا يقرب قدرًا فيه كمأة–فطر بري موسمي–، كما لا يدخل سام أبرص بيتا فيه زعفران'' (٢٢٩).

ومثال آخر هو قوله:" وتزعم الفرس أنّ فيلا من فيلة كسرى اغتلم–أي هاج–، فأقبل نحو النّاس فلم يقم له شيء، حتى دنا من مجلس كسرى فأقشع عنه جنده، وأسلمته صنائعه، وقصد إلى كسرى ولم يبق معه إلّا رجل واحد من فرسانه..."(٢٣٠).

وكان الجاحظ يستخدم وسائل أخرى– مثل إثبات التكذيب والبساطة والغفلة على الرواة– مع صيغتي "زعم وقال" ليتمكن من نقد الروايات والآراء ثم الشك في صدقها وتكذيبها للوصول إلى اليقين؛ فكان يرد–يرفض– بعض الروايات بنسبتها إلى فئة من الناس عرفت بالكذب كالقصاصين، أو عرفت بالبساطة والغفلة والجهل كالعامة والعجائز، أو أصحاب المصالح كالباعة، الأمر الذي يسهل عليهم قبول الروايات الكاذبة، من ذلك قوله : ''وتزعم الفرس أن الأجدهاني أعظم من البعير وأن له سبعة رؤوس، وربما لقيت ناسًا فتبتلع من كل جهة فم ورأس إنسان، وهو من أحاديث الباعة والعجائز'' (٢٣١).

الملاحظة الثانية: التوقف والتريث في إصدار الحكم:

من مظاهر الشك عند الجاحظ التوقف والتريث إزاء ما يرد إليه من الأخبار، وما ينتهي إليه تفكيره من الحقائق والمعاني بهدف فحص الآراء ونقدها، فتراه مثلا يعيب من يجسر ويستهتر ويتسرع في قبول الأخبار. ومن خلال نقده، نستطيع تلمس كيف أنه يتوقف ويتريث قبل أن يأخذ بخبر أو يصدقه، فيروي لنا زعم بعضهم أن الزرافة خلق مركب من الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية وبين ذكر الضباع. ثم يتوقف عند هذا الزعم ويحاول تعليل هذا الاعتقاد الباطل: '' زعموا أنّ الزرافة خلق مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية، وبين الذّيخ وهو ذكر

الضباع؛ وذلك أنّهم لّما رأوا أنّ اسمها بالفارسية (اشتر كاو بلنك) وتأويل (اشتر) بعير، وتأويل (كاو) بقرة، وتأويل (بلنك) ضبع؛ فجسر القوم، فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثا، وجعلوا الخلقة ضربا من التركيب، ويؤكد الجاحظ خطأهم فيقول: وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم ويتهمون الكتب، وتغرهم كثرة أتباعهم ممن تجده مستهترا بسماع الغريب، ومغرما بالطرائف والبدائع(٢٣٢). ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيبًا من التثبت، وحظًا من التوقي لسلمت الكتب من كثير من الفساد" (٢٣٣).

ويرجع الجاحظ فساد القياسات إلى قلة الشك، وإلى الجسارة في التمثيل والمقايسة بلا فهم ولا دليل، وإلى الاستناد إلى الظن بدلا من التثبت والتيقن، وإلى التسرع في قبول الأخبار قبل التحقق منها.

الملاحظة الثالثة: الشك باستخدام أسلوب التهكم

اشتهر الجاحظ بأدب السخرية والفكاهة ونقْل الأخبار الغريبة والطريفة، ونقد بعضها والتشكيك في صحتها من خلال تعليقات تهكمية تؤكد عدم تصديقه لها، من ذلك تعليقه على الخبر التالي : "...ولكن العجب كل العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم إدخال رأسه بعد الشبع والبطنه، ولا بد – أكرمك الله – لما أكل من نجو فإن كان بقى ذلك الولد يأكل ولا يروث، فهذا عجب، وإن كان يروث في جوفها فهو أعجب" (٢٣٤) ، ويعلن الجاحظ موقفه فيقول:" ولا أقرّ أنّ الولد يخرج رأسه من فرج أمّه حتى يأكل شبعه، ثمّ يدخل رأسه من فرج أمّه، ولست أراه محالا ولا ممتنعا في القدرة –الإلهية–، ولا ممتنعا في الطبيعة، وأرى جوازه موهومًا غير مستحيل، إلّا أنّ قلبي ليس يقبله، وليس في كونه ظلم ولا عبث ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحمودة، ولم نجد القرآن ينكره، ولا الإجماع يدفعه، والله هو القادر دون خلقه، ولست أبتّ بإنكاره وإن كان قلبي شديد الميل إلى ردّه، وهذا ممّا لا يعلمه النّاس بالقياس، ولا يعرفونه إلّا بالعيان الظاهر، والخبر المتظاهر"(٢٣٥).

وفي خبر آخر يُجهّل الجاحظ ناقليه، ثم يرد عليهم متهكما، فيقول: "قلنا: قد زعم ابن حائط وناس من جهّال الصوفية أن في النحل أنبياء لقوله تعالى:﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ..﴾[سورة النحل، الآية:٦٨]، وزعموا أن الحواريين كانوا أنبياء لقوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ [سورة المائدة، الآية:١١١]. قلنا : وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء، بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله تعالى، على المخرج العام : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى

النَّحْلِ..﴾، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب، بل أطلق القول إطلاقا. [٢٣٦] ثم يعود الجاحظ إلى جدية الباحث فيدحض آراء الجهال فيقول: ''فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين، وإلا تكونوا مسلمين فلِمَ تحيلون الحجة على نبوة النحل كلامًا هو عندكم باطل'' [٢٣٧].

الخاتمة ونتائج البحث

إن الشك عند الجاحظ يمثل منهجًا عقليًا ضروريًا للمعرفة، وله ملامح واضحة متناثرة في مؤلفاته، تصلح، إذا جُمعت ونُظمت وضُمت أجزاؤها إلى بعضها، أن تعبر تعبيرًا واضحًا عن الشك المنهجي في وقت مبكر من الحضارة الإسلامية.

يتضح الشك –كمنهج عقلي– عند الجاحظ في زاده الكلامي والفلسفي والعلميّ والأدبي، فالطّابع العقليّ المنطقيّ واضح القسمات في دراساته، فكان يُخضع الأشياء الّتي يتناولها للنّقد، ويجعل الشّكَ طريقًا إلى اليّقين، ولا يقبل في إثبات الحقيقة سوى العيان والخبر الصّادق الّذي يحكمه العقل، ولا يُسلّم عقله إلا لمسلمات الإسلام من القرآن والسُّنَّة، وما ثبت صحته عن أهل العلم والمعاينة والتجريب.

تتبيَّنُ لنا مجموعة من النِّقاط المهمَّة التي تفصح عن أصالة الشك عند الجاحظ ، فتكشف عن ملامح عبقريَّته في الوصول إلى المعرفة اليقينية (ومن خطواته التي تناثرت بين سطور كتبه مثلا: الشك– النقد–الجدل– المعاينة –الاستقراء–التجريب– التحقق من صدق الآراء والنتائج– عدم التسرع في التصديق أو الرفض– تقدير العلماء السابقين في علمهم الصحيح–التثبت والتيقن)، فالجاحظ لم يرد الشك كمذهب أي حبًا في ذات الشَّك، ولا يقبل أن يكون الشك كيفما اتفق، ولا في كل أمرٍ على حد سواء، ولا يقبل أن يكون شكًا هدامًا، ولذلك قام بقراءات مستفيضة وتجارب ومعايناتٍ كثيرة للتثبت من كل معلومةٍ وردت إليه، أو لنفي خبرٍ تناهى إلى سمعه ولم يستسغه عقله.

استفاد الجاحظ من القرآن والسُّنَّة وثقافة عصره وآراء المعتزلة وفلاسفة الإغريق(أرسطو بالتحديد) في رسم معالم منهجه العقلي المتمثل في نظرية الشك، فرفع لواء العقل وجعله الحكم الأعلى في كل شيء، ورفض من أسماهم بالنقليين الذين يلغون عقولهم أمام ما ينقلونه ويحفظونه من نصوص القدماء، واتسم منهجه بالتمهل والتريث والحذر، مما يفسح المجال أمام التنقيب والنقد حتى بلوغ اليقين، وذلك وفق أصول علمية ومنهجية.

ومع وضوح الشّك واليقين والأسلوب النّقديّ في كتابات الجاحظ، نجد منهج الجدل واضحًا فيما يطرحه من موضوعاتٍ؛ كوسيلةٍ للكشف عن الحقيقة باحتكاك الآراء التي تكون طريقًا إلى اليّقين؛ فكان في أسلوبه الجدليّ يقدّم أدلة تثبت صحّة الرّأيين المتناقضين؛ بشواهدٍ يستقيها من القرآن، والسّنّة، والشعر، وما سمع عن العرب ، ثم يتعرف على مميزات وعيوب تللك الآراء ، ويفاضل بينها، ثم يميل بعقله لاختيار أحدها، فقدّ كان في جدله لا يكتفي بعرض الأدلة المؤيدة للرأيين؛ بل يوضحهما على ضوء العقل والمنطق.

وفي أبحاثه الطبيعية والاجتماعية لم يكتفِ الجاحظ بالأدلةِ، وإنما كان يستخدم الاستقراء، إذ يتأمل ما يتصل بهذه الظواهر، وما ينتج عنها، كي يستنبط أحكامه بصورة شاملة، مدعمة بالواقعية؛ لذلك نجد الواقعية واضحة في المعطيات المحسوسة التي كان يتناولها في طرحه.

ومع الاستقراء والجدل والشك واليقين اتسم منهج الجاحظ بالشمولية والحيادية والموضوعية، والأخذ بمختلف حقول المعرفة؛ لذا تؤكد كتبه أنه قد كتب في مختلف الموضوعات، فهدف الجاحظ لم يكن نقل المعارف والعلوم فقط، وإنما كان هدفه الأسمى هو إيقاظ العقول وفق منهجٍ فكريّ منطقيّ رصين.

وتتضح أهم النتائج التي توصل إليه الباحث من دراسة "مشكلة الشك عند الجاحظ" فيما يلي:

[١] الشك عند الجاحظ طريق اليقين، لذلك نجده يدعو الباحثين إلى ضرورة تعلُّمِه والتسلح به وإن لم يوصل الى معرفة يقينيّة في بدء التفكير عند محاولة حل مشكلة ما أو تفسير ظاهرة ما، يقول مخاطبًا من أهداه كتاب الحيوان:" تعلّمَ الشّك في المشكوك فيه تعلُّمًا، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرّف التوقف ثمّ التّثبت لكان ذلك ممّا يُحْتاج إليه".

[٢] عدم قبول الخبر مُسَلَّمًا بصحته، وعدم تكذيبه مبدئيًا دون التحقق من صحته بالأدلة والبراهين، يقول: "ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر ولا يعجبني الإنكار له" ، ويجب معالجة الخبر لمعرفة مواضع الضّعف والقوة فيه وصولا إلى اليقين، يقول: " فاعرف مواضع الشّك وحالاتها الموجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له...؛ "فالشّك عند الجاحظ ليس لأجل الشك في حد ذاته(الشك الهدام المذهبي المطلق) وإنّما طلبا لليقين(الشك المنهجي المؤقت الذي يظهر في مرحلة بناء الحضارات)، وفي تعامله مع الأخبار(المعلومات المرتبطة بالمشكلة موضوع البحث) التي يجمعها، يستخدم أدوات الشّك بوعي، ومن هذه الأدوات: اعتماد منهج الجرح والتعديل(هو

العلم الذي يختصُّ برواة أحاديث النبي ﷺ..) بالنظر في مصداقية السند الناقل للخبر ومبلغ ثقته، ثمّ بتقليب المتن وموازنته ومقارنته وعرضه على التّجربة الملموسة أو العقل المستدل أو الخبرة المتراكمة أو المعرفة الحاصلة.

[٣] استخدم الجاحظ منهج النقد للوصول إلى المعرفة اليقينية، وهذا ما نلاحظه من كتبه ورسائله مما يكشفُ لنا عن عقليَّة نقديَّةٍ بارعةٍ؛ نقديَّةٍ بالمعنى الاصطلاحي المنهجي وبالمعنى الشَّائع للانتقاد، فنقده – بالمعنى الشَّائع– يتجلَّى في تهكُّمه وتعليقاته السَّاخرة التي لم يسلم منها جانبٌ من جوانب المعرفة ولا مخطئٌ أمامه أو واصلٌ إليه خبره، أما نقده المنهجيُّ فيتضح في تعامله مع مختلف الموضوعات، ومن ذلك نقده لعلماء عصره ومحدِّثيه ورواته وفقهائه والعلماء السَّابقين عليه، فقد انتقد أحدهم اهتمام علماء الكلام بدراسة الأمور الطَّبيعية فقال: «لو كان بدلُ النَّظرِ فيهما النَّظرَ في التَّوحيد، وفي نفي التَّشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي التَّعديل والتَّجويد، وفي تصحيح الأخبار، والتَّفضيل بَيْنَ علم الطَّبائع والاختيار، لكان أصوب. فردَّ عليه الجاحظ ناقداً لرأيه: بقوله: العَجَبُ أنَّك عمدت إلى رجالٍ لا صناعة لهم ولا تجارة إلا الدُّعاءُ إلى ما ذكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلاَّ وضع الكتب فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهم لذَّة ولا همٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلاَّ عليه وإليه؛ فحين أرادوا أن يقسّطوا بَيْنَ الجميع بالحِصص، ويَعْدِلوا بين الكلِّ بإعطاء كلِّ شيءٍ نصيبه، حَتَّى يقع التَّعديلُ شاملاً، والتَّقسيط جامعاً، ويظهر بذلك الخفيُّ من الحكم، والمستور من التَّدبير، اعترضتَ بالتعنُّت والتَّعجُّب، وسطَّرت الكلام، وأطلت الخطب، من غير أن يكون صوَّب رأيك أديبٌ، وشايعك حكيمٌ".

[٤] الجاحظ يجمع الآراء المتسقة والمتضاربة حول موضوع بحثه، ليعرض أمام عقله الفكرة، ونقيضها، ويدافع عن كلّ منها دفاعًا يوهم القارئ، أو المستمع أنّها تلكَ الفكرة الّتي يُناصرها، لكن سرعان ما تجد القوة نفسها في دفاعه عن نقيضها؛ فنراه يكتب في ذم الشّيء ومدحه بالدّرجةِ نفسها من القوةِ؛ ذلك طريقه في تحليل الأشياء بمنهج الشّك واليّقين، ثم ينتقد أفكاره، فقد نقد بعض العادات والقيم السّائدة في عصره، وحمّلته نزعتهُ النّقديّة إلى انتقاد بعض المذاهب الفكريّة، إلا إنّه اتسم بالموضوعيّة في نقده؛ ليثبت ما يقبله العقل والمنطق فيما ينقد.

[٥] استخدم الجاحظ المعاينة والتجريب والاستقراء عند دراسته للحيوانات والنباتات وطبائع البلاد والأشخاص؛ وهذه الخطوةُ تقترن بالنَّقد، خاصَّةً في مسائل العلم الطَّبيعي، والجاحظ جعل المعاينة والتجريب والاستقراء خطوة رئيسة من خطوات منهجه البحثي للتَّثبُّت من معلومةٍ وصلت إليه، أو لنفي خبرٍ تناهى إلى سمعه ولم يستسغه عقله ، ويبدو ذلك في اتجاهين؛ أولهما

قيامه هو ذاته بالمعاينة والتَّجريب، وثانيهما نقل تجارب أساتذته ومعاصريه، والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها تجربته في زراعة شجرة الآراك وقصته الطويلة معها للتأكد مما قيل عن تكاثر الذَّرِّ – صغار النمل– عليها، ويصف لنا بُرنيَّةَ زجاجٍ(إناءٌ واسعُ الفَمِ من خَزَف أو زُجاج ثخين) وُضِع فيها عشرون فأرًا مع عشرين عقرب، وما فعلته العقارب بالفئران.

[٦] لجأ الجاحظ إلى تجريب بعض المواد الكيماويَّة– في عصره على الحيوان ليعلم مبلغ تأثيرها فيه، وليتأكَّد مما قيل في ذلك، ومما أورده من تجارب غيره تجربة أستاذه النَّظَّام عندما سقى الحيوانات خمراً ليعرف كيف يؤثِّر الخمر في الحيوان، ولم يكتف بنوعٍ واحدٍ بل جرَّب على عددٍ كبيرٍ من الحيوانات كالإبل والبقر والجواميس والخيل...

[٧] يتميز الشك عند الجاحظ بالموضوعيّة والتّجرّد؛ فيرفض التّسرع في الحكم على ما يصله من أخبار، ويرفض التعجيل بتصديقها أو تكذيبها قبل التثبت من صحتها، يقول الجاحظ "ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، كما لا يعجبني الإنكار له"، ويظهر ذلك في إيراد الروايات بسند صحيح ثابت كما سمعها أو نقلها إليه الثقات من أصحابه و شيخوخه من دون أي حكم مسبق لها أو عليها، مثل إيراده تفصيلات حول طريقة الحيّة في اصطياد العصافير، وطرح وجهات النّظر المختلفة في المسألة التي يدرسها طرحًا موضوعيًا من غير تدخل أو إصدار حكم إلا بعد التمحيص والشك والتحليل، كما فعل حين أورد الروايات المختلفة التي سمعها عن طريقة ولادة الأفعى.

[٨] يؤكد الجاحظ على القراء والباحثين عن الحقيقة عدم الاغترار بظواهر الأشياء أو الاستناد على المظاهر في تقييم الأمور: "أوصيك أيّها القارئ المتفهّم وأيّها المستمع المنصت المصغ، أن لا تحقر شيئًا أبدًا لصغر جُثّته ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه".

[٩] يدعو الجاحظ القراء والباحثين عن الحقيقة إلى ضرورة الانطلاق في بحث المشكلات بحثًا عقليًا ورفض الانقياد للمسلّمات، وعدم التّسليم بصحّة الأفكار المسبقة مهما يكون بريقها وانتشارها، ومهما يكن مَنْ وصل إليها وأخبر بها، مع عدم القدح في مكانة من نثق في علمهم، ومثاله: "زعم ابن أبي العجوز أنّ الدّسّاس تلد، وكذلك خبّرني به محمد بن أيوب بن جعفر عن أبيه، وخبّرني به الفضل بن إسحاق بن سليمان، فإن كان خبرهما عن إسحاق فقد كان إسحاق من معادن العلم".. إلى أن يقول:" ولم أكتب هذا لتقرّ به".

[١٠] يدعو الجاحظ الباحثين إلى البحث-كما فعل هو- عن المعلومة في مظانّها ومصادرها الأصلية والاتصال بالمتخصّصين فيها، وأمثلة ذلك كثيرة منها قوله: "وسمعت حديثًا من شيوخ ملاحي الموصل..."، " وخبّرني من يصيد العصافير...".

[١١] ضرورة التحرّي والاقتصاد في الحكم: كثيرًا ما يميل الجاحظ إلى التّرجيح والتّغليب أو الشّك والاستبعاد، ولعلّ ذلك من مظاهر تواضعه العلمي وتقديره للثّقات الذين يروي عنهم من أفذاذ العلماء في عصره كما في قوله: "ولا أدري أيّ الخبرين أبعد، أخبر ابن غالب في تفسيخ الثّوب -يقصد تقطّع الثّوب بتأثير سمّ الأفعى-، أو خبر ابن المثنّى في سلامة الفروج على الأفعى".

[١٢] يدعو الجاحظ إلى التأني قبل إصدار الأحكام المطلقة أو الأراء النهائية المؤكدة إلا بعد التحقق من وضوح الصواب أو الخطأ فيها، كموقفه من قول أرسطو: " قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت-أي الجاحظ- أعرابيا عن ذلك، فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: فأما السعي فلا تسعى؛ ولكنها تسعى على حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغذى بفم، وأما العض فإنها تعض برأسيها معا. فإذا هو أكذب البرية"، وبتكذيب الجاحظ للأعرابي يكون رافضًا لقول أرسطو.

[١٣] تميز الجاحظ بالثقة في منهجه العقلي، وتميز بالاستقلال الفكري وعدم التبعية لأحد مهما تعاظمت مكانته العلميّة، فقد رد على أرسطو في الكثير من المواضع التي نقل فيها عنه، بعد التحقق من خطأه، ومن أمثلة ذلك قوله: "وقال صاحب المنطق: ويكون في بلدة يونانية حية صغيرة شديدة اللدغ، إلا أنها تُعَالَجُ بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك، ويعقب الجاحظ قائلا: لم أفهم هذا، ولم كان ذلك".

الهوامش:

(١) الجاحظ (١٦٠هـ –٧٧٥م/٢٥٥هـ –٨٦٨ م) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، ولد ونشأ في البصرة، وبلغ من الذكاء وسعة الاطلاع وقوة التفكير ما جعله من كبار أئمة الأدب وعلم الكلام، والبصرة آنذاك آهلة بالأدباء والنُّحاة وأصحاب اللغة فنبغ في كل ذلك، وينتمي الجاحظ لفرقة المعتزلة، وعاش حياته في فترة الخلافة العباسية، وقد ذاع صيته في العالم الإسلامي آنذاك، فتهافت الناس لمشاهدته وسماعه والتعلم منه. راجع: أبو الفرج ابن النديم(ت٣٨٤هـ)، الفهرست، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٨هـ، ص١٦٩، جرجي زيدان(ت١٩١٤م)، تاريخ آداب اللغة العربية، ج١، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص٤٧٤–٤٧٧، فيكتور شلحت اليسوعي(ت٢٠٠٦م)، النزعة الكلاميّة في أُسلوب الجاحظ، ط٣، دار المشرق، بيروت،١٩٩٢م، ص٢٢، د. محمد عبد المنعم خفاجي(ت٢٠٠٦م)، أبو عثمان الجاحظ، دار الطباعة المحمدية، الأزهر، القاهرة، ط١، د.ت، ص١٥–٤٠، حنا الفاخوري(ت٢٠١١م)، تاريخ الأدب العربي، ط٦، بيروت، د. ت، ص٥٥٩–٥٦١.

(٢) الراغب الأَصْفَهَاني (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م ، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٢٧٢، ابن منظور(ت٧١١هـ)، لسان العرب، ج١١، ط١، دار صادر، بيروت، ص٤٥٨، علي بن محمد بن علي الشريف الحسني *الجُرجاني*(ت٨١٦هـ)، التعريفات، مكتبة مشكاة الإسلامية، د.ت، بدون رقم الطبعة، باب الشين، مادة: الشك: ص١٢٨، أبو البقاء الكفوي(ت١٠٩٣هـ)، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مكتبة مشكاة الإسلامية، عن نسخة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٥٢٨، خير الدين الزِّرِكْلي (ت١٩٧٦م)، الأعلام، قاموس تراجم، ج٢، دار الملايين، بيروت،١٩٨٦م، ص٨٣، عمر رضا كحالة (ت١٩٨٧م)، معجم المؤلفين، ج٣، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م، ص٣١.

(٣) راجع: معنى الشك في: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة: **https://ar.wikipedia.org/wiki**

(٤) لم يكتب الجاحظ كتابًا أو بحثًا مستقلا عن العقل، وكان علينا محاولة الكشف عن موقفه من العقل ومفهومه في ثنايا كتبه، لنكشف عن دوره في عملية الشك، وهذا ما سوف يفعله الباحث في ثنايا هذا البحث.

(٥) د. محمد عبد المنعم خفاجي(ت٢٠٠٦م)، أبو عثمان الجاحظ، مرجع سابق، ص١٨٥.

(٦) الجاحظ، الحيوان، ج٦، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ط٢،١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، ص٣٥-٣٧، د. محمد عبد المنعم، أبو عثمان الجاحظ، مرجع سابق، ص١٨٥-١٨٦.

(٧) نقلا عن: محمد كرد علي، أمراء البيان، ج٢، ط٢، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٣٤٨، حيث يذكر هذا النص وينقله من رسالة ذم العلوم ومدحها للجاحظ، ولم أتمكن من الوصول لها ضمن رسائله المطبوعة.

(٨) سورة الواقعة، الآية رقم:١٩.

(٩) سورة الواقعة، الآية رقم:٣٣.

(١٠) راجع: الجاحظ، الحيوان، ج٣، تحقيق: عبدالسلام هارون، مرجع سابق، ص٥٣٤(من إيجاز القرآن).

(١١) ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق،ص ٥٧.

(١٢) الجاحظ، الحيوان، ج١، مرجع سابق، ص٤، الجاحظ، الرسائل الكلامية، ص١٦٦.

(١٣) معمر بن عباد: هو أبو المعتمر معمر بن عباد السلمي (ت٢١٥هـ/٨٣٠م) من غلاة المعتزلة وأحد علمائهم في القرن الثاني والثالث الهجريين، من أهل البصرة، سكن بغداد وأقام فيها حلقة لتدريس علم الكلام، وإليه تنسب فرقة المعمرية، وكانت آرائهم تدور حول أن الله لم يخلق شيئا غير الأجسام وأما الأعراض فتخترعها الأجسام إما طبعًا كالنار للاحتراق وإما اختيار كالحيوان للألوان، وقالوا لا يوصف الله بالقدم لأنه يدل على التقدم الزماني والله تعالى ليس بزماني ولا يعلم نفسه وإلا اتحد العالم والمعلوم وهو ممتنع.

راجع: ويكيبيديا: معمر بن عباد.

(١٤) ثمامة بن أشرس(ت٢٢٥هـ/٨٤٠م) هو ثمامة بن الأشرس النميري، ولقبه أبو معمر النميري، مناظر قوي، وأديب بارع، كان يمثل لوناً مميزاً من ألوان الاعتزال، فهو ليس بالزاهد، لكنه المعتزلي المغامر في شؤون الدنيا، المتردد على قصور الخلفاء، يزين مجالسهم بالكلام العذب في الأدب والمناظرة في مسائل الاعتزال وغير الاعتزال، وقد مُلئت كتب الأدب بأحاديثه الممتعة ونوادره الطريفة. وصفه الشريف المرتضى فقال: "كان واحد دهره في العلم والأدب، وكان

جدلاً حاذقاً"، والجاحظ ينقل عنه كثيرًا في البيان والتبيين والحيوان فيقول: "حدثنا ثمامة"، و"أخبرنا ثمامة"، وقد تأثر الجاحظ به كثيرًا في أسلوبه ومعانيه.راجع : ويكيبيديا: ثمامة بن أشرس.

(١٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ، الرسائل الكلامية، ، تقديم وتبويب وشرح د.علي أبو ملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٦٨-١٧١.

(١٦) الجاحظ، رسائل الجاحظ، الرسائل الأدبية، تقديم وتبويب وشرح د.علي أبو ملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م، ص١١٧، ص ١٣٨،

(١٧) سورة البقرة، الآية رقم: ١٠٩.

(١٨) سورة التوبة، الآية رقم:٣٠.

(١٩) سورة المائدة، الآية رقم:٦٤، ونصها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(٢٠) سورة آل عمران، الآية رقم: ١٨١.

(٢١) الجاحظ، ثلاث رسائل، تحقيق يوشع فنكل، المطبعة السلفية،القاهرة،١٣٤٤هـ ، ص٢٧-٢٨.

(٢٢) الجاحظ، الرسائل الكلامية، ص١٧٢.

(٢٣) سورة البقرة ، الآية رقم:٢٥٦، راجع تفسيرها عند كل من: الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، تفسير *الكشاف* عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج١، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ص٣٠٣ ، الطبري(ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن،ج٤، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م، ص٥٤٦-٥٥٥، القرطبي(ت٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن، ج٤، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م، ص٢٨٠، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، ج١، دار طيبة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٦٨٣، محمد بن عبدالرحمن بن محمد الإيجي(ت٩٠٥ هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن، ج١، تحقيق د.عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص١٩٠.

(٢٤) سورة الكهف، الآيتان: ٢٩ -٣٠.

(٢٥) سورة يونس، الآية رقم:٩٩.

(٢٦) سورة هود، الآية رقم: ١١٨.

(٢٧) فتحي رضوان، الإسلام والإنسان المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٥٢-٥٤.

(٢٨) سورة البقرة ، الآية رقم: ١٦٤.

(٢٩) للوقوف على سياق ﴿ أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ والهدف منه: راجع السور الآتية: البقرة، الآيات رقم: ١٧٦، رقم ١٩٧، رقم: ٢٦٩، آل عمران، الآية:٧، رقم: ١٩٠، المائدة، الآية: ١٠٠، يوسف، الآية:١١١، الرعد، الآية: ١٩، إبراهيم، الآية: ٥٢، سورة ص، الآية: ٢٩، رقم٤٣، الزمر، الآية: رقم ٩، رقم ١٨، رقم ٢١، غافر، الآية: ٥٤، الطلاق، الآية: ١٠.

(٣٠) جاءت كلمة تَعْقِلُونَ في القرآن ٢٤ مرة : البقرة : ٤٤، البقرة : ٧٣، البقرة : ٧٦، البقرة: ٢٤٢، آل عمران: ٦٥، آل عمران: ١١٨، الأنعام: ٣٢، الأنعام: ١٥١ ، الأعراف : ١٦٩، يونس: ١٦، هود: ٥١، يوسف: ٢، يوسف: ١٠٩، الأنبياء: ١٠،الأنبياء: ٦٧، المؤمنون :٨٠، النور: ٦١، الشعراء: ٢٨، القصص: ٦٠، يس: ٦٢، الصافات: ١٣٨، غافر: ٦٧، الزخرف: ٣، الحديد: ١٧، وكلمة (يعقلون) جاءت في القرآن ٢٢ مرة : البقرة: ١٦٤، البقرة: ١٧٠، البقرة: ١٧١، المائدة: ٥٨، المائدة : ١٠٣، الأنفال : ٢٢، يونس: ٤٢، يونس : ١٠٠، الرعد: ٤، النحل: ١٢، النحل: ٦٧، الحج: ٤٦، الفرقان : ٤٤، العنكبوت: ٣٥، العنكبوت: ٦٣، الروم : ٢٤، الروم: ٢٨، يس: ٦٨ ، الزمر: ٤٣، الجاثية: ٥، الحجرات: ٤، الحشر: ١٤، وكلمة (يعقل) جاءت في القرآن ٢٣ مرة، وهي نفس الآيات التي ذكرت في المصدر السابق بعد حذف(ون) من الفعل(يعقلون) بالإضافة للآية ٣٥ من سورة العنكبوت، كلمة (نعقل) جاءت في القرآن مرة واحدة في سورة الملك في قوله تعالى:﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

(٣١) كلمة (يتدبرون) جاءت في القرآن في آيتين هما: سورة النساء: ٨٢، سورة محمد: ٢٤.

(٣٢) كلمة يتفكرون جاءت في آيات القرآن ١١ مرة: آل عمران: ١٩١، الأعراف: ١٧٦، يونس: ٢٤، الرعد: ٣، النحل: ١١، النحل: ٤٤، النحل: ٦٩، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣، الحشر: ٢١، وجاءت مرة بعد(لم) فحُذِفَ حرف(النون- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) في سورة الروم: ٨.

(٣٣) انظر*على سبيل المثال: السور والآيات الآتية: النحل: الآيات رقم: ١١، رقم:١٣، رقم:٦٥، الأنعام: الآية رقم: ٩٩، ونلاحظ أن* كلمة (يسمعون) جاءت في ٢١ آية: البقرة : ٧٥ ، الأنعام: ٣٦ ، الأعراف: ١٠٠، الأعراف: ١٧٩، الأعراف: ١٩٥، الأنفال: ٢١، يونس: ٦٧، النحل: ٦٥، مريم: ٦٢، الأنبياء: ١٠٠، الأنبياء: ١٠٢، الحج: ٤٦، الفرقان: ٤٤، الشعراء: ٧٢، الروم: ٢٣، السجدة : ٢٦، الصافات: ٨، فصلت: ٤، ق: ٤٢، الواقعة: ٢٥، النبأ: ٣٥، كلمة يسمع وردت في٣١ آية، وفي سورة المجادلة ورد اللفظ (سمع) مع الله تعالى(فيكون الإجمالي ٣٢ مرة)، *والسمع والرؤية وغيرهما من الحواس الخمس الظاهرة في حاجة للعقل لتمام الإدراك والفهم والتفسير والتأمل في جنبات الكون.*

(٣٤) سورة البقرة، الآية رقم: ٢٤٢.

(٣٥) سورة يوسف، الآية رقم: ٢.

(٣٦) سورة البقرة، الآية رقم: ١٧١.

(٣٧) سورة العنكبوت، الآية رقم: ٤٣.

(٣٨) سورة الملك، الآية رقم: ١٠.

(٣٩) سورة البقرة، الآية رقم: ٧٥.

(٤٠) سورة البقرة، الآية رقم: ١٧٩.

(٤١) سورة البقرة، الآية رقم: ٢٦٩.

(٤٢) سورة طه، الآية رقم: ٥٤.

(٤٣) سورة طه، الآية رقم: ١٢٨.

(٤٤) سورة الأعراف، الآية رقم: ١٧٩.

(٤٥) سورة ق، الآية رقم: ٣٧.

(٤٦) سورة الفجر، الآية رقم: ٥.

(٤٧) سورة المدثر، الآية رقم: ١٨-١٩.

([٤٨]) سورة سبأ، الآية رقم: ٤٦ . .

([٤٩]) سورة البقرة ، الآية رقم: ٢١٩، ٢٦٦، سورة الأنعام، الآية رقم: ٥٠.

([٥٠]) سورة الأعراف، الآية رقم: ١٨٤.

([٥١]) سورة الروم، الآية رقم: ٨.

([٥٢]) سبق الاشارة *إلى أن* كلمة (يتفكرون) جاءت في آيات القرآن ١١ مرة: منها سورة الرعد، الآية رقم: ٣.

([٥٣]) سورة النساء، الآية رقم: ٨٢.

([٥٤]) سورة محمد، الآية رقم: ٢٤.

([٥٥]) سورة ص، الآية رقم: ٢٩.

([٥٦]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج٢٠، دار هجر، القاهرة، ط١، سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٧٩-٨٠.

([٥٧]) سورة هود:١٣.

([٥٨]) الزمخشري، تفسير *الكشاف*..، ج٢، مرجع سابق، تفسير سورة هود، الآية رقم١٣، ص٣٨٢-٣٨٣، الإمام محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٧، ط١، دار الفكر العربي،١٩٨٧م، ص ٣٦٧٨.

([٥٩]) سورة البقرة، الآية رقم: ٢٣.

([٦٠]) راجع: الزمخشري، تفسير *الكشاف* ، ج١، ص٩٦-٩٧.

([٦١]) سورة الإسراء، الآية رقم:٨٨.

([٦٢]) سورة الروم، الآية رقم:٨، راجع تفسيرها في: تفسير الكشاف للزمخشري، ج٣، ص٤٦٨، تفسير ابن كثير، ج٦، ص٣٠٥.

([٦٣]) سورة الملك، الآيتان:٣-٤، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٥٧٥-٥٧٦.

(٦٤) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، أعدَّه مجمع الملك فهد وفقَ أصول التفسير وموارده الأصيلة، ط٤، المدينة المنورة، سنة ١٤٣٣هـ، وهو عدة أجزاء في مجلد واحد فقط، ج٢٩، ص٥٦٢.

(٦٥) سورة البقرة، الآية رقم: ١٧٩.

(٦٦) سورة الأنعام، الآية رقم: ١١.

(٦٧) سورة الكهف، الآية رقم: ٤٥.

(٦٨) ابن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف (١٣١٨هـ-١٤٠٢هـ/١٩٠٠م-١٩٨١م)، أوضح التفاسير، ويقع في مجلد واحد، المطبعة المصرية ومكتبتها، ط٦، سنة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، ص٣٥٧.

(٦٩) سورة آل عمران، الآية رقم: ١٠٤، ولمعرفة تفسيرها راجع: الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٣٩٦.

(٧٠) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر،ج٤، تفسير الآية: ١٠٤ من سورة آل عمران، ص٦٣.

(٧١) سورة الأنفال، الآية رقم: ٢٥، راجع: الزمخشري، الكشاف، ج٢، شرح الآيتين ٢٥-٢٦ من سورة الأنفال لارتباط المعنى، ص ٢١١.

(٧٢) تفسير ابن كثير،ج٤، ص٣٧.

(٧٣) سورة البقرة، الآية رقم: ١٧٠.

(٧٤) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ج٢، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٧٥) سورة الإسراء، الآية رقم: ٣٦.

(٧٦) راجع: شرح الآية رقم: ٣٦ من سورة الإسراء، في كل من: الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٦٦٥-٦٦٦ حيث يفسر ﴿ وَلَا تَقْفُ﴾ بأكثر من معنى، منها التقاذف، وشهادة الزور، التفسير الميسر، ص٢٨٥.

(٧٧) سورة آل عمران الآية رقم: ١٨.

(٧٨) راجع: شرح الآية رقم: ١٨ من سورة آل عمران، في كل من: الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٣٤٣، تفسير الجلالين، ج١، ص٦٧.

(٧٩) سورة البقرة، الآية رقم: ١٥٩-١٦٠.

(٨٠) راجع: سورة الأعراف، الآيه: ١٥٧: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(٨١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٢٠٩-٢١٠، الشيخ أحمد مصطفى المراغي(ت ١٣٧١هـ)، تفسير المراغي، ج٢، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م، الآيات ١٥٩-١٦٢ لاكتمال المعنى، ص٢٨-٣٢، ويجب الرجوع لشرح الآيات ذات الصلة بنفس الموضوع وهي: سورة البقرة، الآيات:١٤٣-١٤٦، سورة الأنعام، الآية:٢٠.

(٨٢) سورة المائدة، الآية رقم:٩٠-٩١.

(٨٣) وفي الحديث الصحيح: { شارب الخمر كعابد الأوثان} بهذا اللفظ { شارب} رواه البزار برقم ٢٣٨٢، وفي الجامع الصغير للسيوطي قال رواه الحارث، عن ابن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني، انظر حديث رقم: ٣٧٠١ في صحيح الجامع، وعندهم بلفظ مفرد {وثن} وليست بلفظ الجمع، وقد شبه النبي ﷺ مدمن الخمر بعابد الوثن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عليه السلام قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : { مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ} رواه ابن ماجه برقم ٣٣٧٥ ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ٢٧٢٠.

(٨٤) سورة الحج، الآية:٣٠، ونصها: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

(٨٥) راجع: تفسير الآيتين٩٠-٩١: الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٦٧٤-٦٧٥.

(٨٦) راجع: تفسير الآيات٩٠-٩٣ من سورة المائدة في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا(ت١٩٣٥م)، ج٧، خرج آياته وأحاديثه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤١-١٠٠.

(٨٧) رواه أبوهريرة وحدث به الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، ج١، حديث رقم ٢٢١، ص١١٩، وورد الحديث في صحيح أبي داوود برقم٤٧٢١، وحدَّث به الألباني وقال حديث صحيح، وشرحه: لا يَأْلُو الشَّيْطانُ جُهْدًا في غَوايةِ الإنسانِ وإضلالِهِ، فَيَدْخُلُ عليه من كلِّ باب: الشَّهواتِ، والشُّبهاتِ والوساوسِ. وفي هذا الحَديثِ يقولُ النَّبيُّ ﷺ: "لا يَزالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ"، أي: لا يَنقَطِعون عن سُؤالِ بعضِهم بعضًا في أشياءَ، والتَّساؤُلُ: حِكايةُ النَّفْسِ، وحديثُها، ووسوستُها، "حتَّى"، أي: حتَّى يبلُغَ السُّؤالُ إلى أنْ "يُقَالَ: هذا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ؛ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟"، أي: هذا القولُ، أو قولُكَ: هذا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ معلومٌ مشهورٌ، "فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟!" أي: فما القُوَّةُ الكُبرى التي خَلَقَتِ اللهَ، وَأَوْجَدَتْهُ؟! تَعالَى اللهُ عن ذلِك عُلُوًّا كبيرًا، "فمَنْ وجَد مِن ذلك شيئًا"، أي: مَنْ صادَف شيئًا من ذلك القولِ والسُّؤالِ، أو وجَد في خاطِرِهِ شيئًا مِن جِنْسِ ذلك الحديثِ، "فَلْيَقُلْ: آمنتُ باللهِ ورُسُلِهِ"، أي: آمنتُ بالَّذي قاله اللهُ تعالى ورُسلُه عليهم السَّلامُ مِنْ وَصْفِهِ تعالى بالتَّوحيدِ والقِدَمِ ، وقولُهُ سبحانه وإجماعُ الرُّسُلِ هو الصِّدقُ والحقُّ؛ فماذا بَعْدَ الحقِّ إلا الضَّلالُ؟!

راجع الموسوعة الحديثية: https://dorar.net/hadith/sharh/26112

(٨٨) سورة الإسراء، الآية رقم:٨٥.

(٨٩) راجع:الزمخشري، الكشاف، ج٢، تفسير سورة الإسراء، الآية:٨٥ ، ص٦٩٠.

(٩٠)*الجاحظ، الحيوان، ج١* ، مرجع سابق، ص ٥٤٦(بتصرف وشرح).

(٩١) سورة الأعراف، الآية رقم: ١٣٣، راجع تفسير الزمخشري والقرطبي والطبري والسعدي لنفس الآية، وتفسير الإمام محمد أبي زهرة، زهرة التفاسير، ج٦، ص ٢٩٣٦.

(٩٢) راجع: أبي زهرة، زهرة التفاسير، ج٦، ص ٢٩٣٦، تفسير الشعراوي للآيات: ١٣١– ١٣٣ من سورة الأعراف(بتصرف وشرح).

(٩٣) محمد أركون ، الفكرالعربي، ترجمة: د.عادل العوا ، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة ١٩٨٢م، ص٩٨–٩٩(بتصرف).

(٩٤) سورة العنكبوت، الآيتان : ٣٤–٣٥، *راجع: الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٤٥٣ .*

(٩٥) قياس الغائب على الشاهد أو قياس الغيب على الشهادة: هو منهج علمي اتبعه علماء الكلام، واتخذوا منه مسلكًا رئيسيًا في عملية الاستدلال، والمقصود بالشاهد في علم الكلام: هو المعلوم المُدْرَكُ بالحسِ أو باضطرار، وإن لم يكن محسوسًا. والمقصود بالغائب: هو ما غاب عن الحس

المباشر، أي لم يكن في شيء من الحواس. والاستدلال بالشاهد على الغائب في اللغة يُقصد به – كما ورد في أغلب الدراسات حوله – أنه استدلال بما يشاهده الحس على ما لا يشاهده سواء كان إدراكًا مباشرًا أو غير مباشر.. راجع: أحمد بن إدريس القرافي شهاب الدين أبو العباس، شرح تنقيح الفصول في إختصار المحصول في الأصول، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٣٢١(بتصرف وشرح).

(٩٦) كتاب حجج النبوة سماه الجاحظ في مقدمة الحيوان (الحجة في تثبيت النبوة)، وفي ج٤ ذكر كتاب "دلائل النبوة" ثم ذكر كتابًا آخر سماه (الفرق بين النبي والمتنبي)، راجع: الجاحظ، البخلاء، تحقيق: د.عمر الطباع، مكتبة دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٣٧، ثلاث رسائل للجاحظ، ط مكتبة دار الأرقم، بيروت، د.ت، د.ط، ص٢٧–٢٨.

(٩٧) الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص٩٠، الجاحظ، الرسائل الكلامية، ص ١٢٨.

(٩٨) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص٧: على سبيل المثال يذكر قول الرسول ﷺ: لا يَجْنِ يمِينُكَ عَلَى شِمَالك"، وهذا حكمُ اللّه تعالى وآدابُ رسوله والذي أُنْزِلَ به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَج العقول.

(٩٩) الجاحظ، البخلاء، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨٠م، ص٢٣٢–٢٣٣، ص٢٣٦وما بعدها

(١٠٠) *الجاحظ*، الرسائل الأدبية، مرجع سابق، ص٢٥٢.

(١٠١) الإمام البخاري(ت٢٥٦هـ)، *الجامع المسند الصحيح المختصر* من أُمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، ج٢، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (طبعة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، سنة ١٤٢٢هـ، كتاب الزكاة، وقد ورد الحديث برقمي ١٤٠٧، ١٤٠٨، ص١٠٧ ؛ الإمام مسلم (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، ج٢، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دارإحياء التراث العربي، ص ٦٨٩.

(١٠٢) البخاري، صحيح البخاري، ج١، باب ترك الحائض الصوم، ص٦٨.

(١٠٣) سورة البقرة :٢٨٢

(١٠٤) راجع: الإمام مسلم، صحيح مسلم، ج ٣، كتاب الحدود، باب من شهد على نفسه بالزنا رقم ١٦٩٢، سنن أبي داود ، كتاب الحدود، ج٤، ص١٩٧، وقد جاء القرآن بحكم شرعي يأمر

بتحريم الزنا ؛ فقد نص في سورة الإسراء، الآية:٣٢ على النهي عن فعله بالنهي عن الاقتراب منه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ .

(١٠٥) راجع: قول النبيﷺ في صحيح البخاري، ج٦، كتاب الحدود ، باب لايرجم المجنون والمجنونة، حديث رقم ٦٤٣٠، ص٢٤٩٩، صحيح مسلم، ج٣، ص١٣١٨، سنن الترمذي، ج٤ ص٢٨ { رُفِعِ القَلَمُ عن ثلاثةٍ: عن النَّائمِ حتَّى يستيقظَ، وعن الصَّبي حتَّى يحتلِمَ، وعن المجنونِ حتَّى يَعقِلَ}، راجع: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٢، ص ١٢٣.

(١٠٦) راجع: إن المدح والثناء والتكريم والتقدير النبوي للعقل يتجلى عندما يختصر الرسول ﷺ المروءة في العقل، فيقول: {كرم الرجل دينُه، ومروءته عقُله، وحَسَبُه خلُقه}، راجع: الإمام أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)، المسند، ج٢، بدون رقم الطبعة، مؤسسة قرطبة، مصر، د.ت، ص٣٦٥، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٢، كتاب النكاح، دار المعرفة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨هـ، ص٥١٢.

(١٠٧) راجع: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٢٣٨٢؛ ج ٦، ص ٢٥٩٦ ، صحيح مسلم، ج ١، ص١٢٧، حيث يقول الرسولﷺ "يقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده".

(١٠٨) راجع: صحيح مسلم، ج١، في أول كتاب الإيمان، ص ٤٨، الإمام يحيى بن شرف النووي الدمشقي الشافعي (ت٦٧٦هـ) ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، كتاب المقدمات، باب الحلم والأناة والرفق، حديث رقم:٦٣٢.

(١٠٩) راجع: صحيح مسلم، ج١، ص٣٢٣.

(١١٠) ابن الجوزي(ت٥٩٧هـ)، كتاب الأذكياء، باب في ذكر فضل العقل، طبعة شركة نوابغ الفكر، د.ط، د.ت، ص٢-٣.

(١١١) سورة الإسراء، الآية رقم:٧٢.

(١١٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج١، شرح وتقديم وتعليق: عبد الأمير مهنا، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨م، ص٧٨.

(١١٣) الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد المعروفة برسالة الآداب، ضمن الرسائل السياسية، تحقيق د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الحياة، بيروت، سنة ٢٠٠٢م، ص٧٠-٧١، وفي هذه الرسالة يتحدث

الجاحظ عن دور العقل في توجيه السلوك الأخلاقي، وتقوى الله، وشكرالمنعم، وشكر أصحاب الفضائل، ونصح الحاكم العادل وغير العادل...

(١١٤) ورد هذا الحديث في صحيح البخاري برقم ٧٣١٤، وفي صحيح مسلم برقم ١٥٠٠، راجع شرح الحديث في الدرر السنية، الموسوعة الحديثية: https://dorar.net/hadith/sharh/13766

(١١٥) ورد هذا الحديث في صحيح البخاري برقم ١٨٥٢، راجع: شرح الحديث في الدرر السنية، الموسوعة الحديثية: جُهَينةُ هي إحدى قبائلِ العرَبِ، وفي هذا الحديثِ أنَّ امرأةً من تِلك القبيلةِ جاءَتْ تسألُ النَّبيَّ ﷺ عن جوازِ قضاءِ الحجِّ عن أمِّها الَّتي ماتَتْ وقد نذَرَتِ الحجَّ ولم تُؤدِّه، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «حُجِّي عنها»، وهذا يدلُّ على أنَّ النِّيابةَ تجوزُ في الحجِّ؛ فالعباداتُ أنواعٌ، عباداتٌ ماليَّةٌ محضةٌ؛ كالزَّكاةِ، وهذه تجوزُ النِّيابةُ فيها، وعباداتٌ بدنيَّةٌ محضةٌ؛ كالصَّلاةِ، وهذا النَّوعُ لا تجوزُ النِّيابةُ فيه، وعباداتٌ مركَّبةٌ منهما؛ كالحجِّ، وهذا النَّوعُ تجوزُ النِّيابةُ فيه عند العجزِ وعَدمِ القدرةِ على الأداءِ، أو الموتِ. وهنا المرأةُ الَّتي نذَرتِ الحجَّ ماتت قبل الوفاءِ به، فلم تعُدْ قادرةً على الوفاءِ بطبيعةِ الحالِ، فجازت النِّيابةُ عنها، وقد شبَّهَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الحجَّ الَّذي عليها بالدَّينِ، وهو واجبٌ القضاءِ؛ لأنَّه حقٌّ للآدميِّين، والحجُّ حقٌّ لله تعالى، فكان قضاءُ حقِّه تعالى أوثقَ وأَوْلى مِن قضاءِ حقِّ الآدميِّين؛ فالحجُّ الَّذي وجَب في الذِّمَّةِ لا يسقُطُ سوى بقضائِه، كما لا يسقُطُ الدَّينُ سوى بالقضاءِ، فإذا وجَب الحجُّ على شخصٍ ومات قبْلَ أدائِه، ثمَّ أدَّى شخصٌ آخرُ هذا الحجَّ عنه – سقَط عنه. وهذا لا يبعُدُ في كرمِ اللهِ وفضلِه أنَّه إذا حجَّ الوليُّ عن الميِّتِ أن يعفوَ اللهُ عن الميِّتِ بذلك، ويُثيبَه عليه، أو لا يُطالبَه بتفريطِه.

راجع: https://dorar.net/hadith/sharh/2009

(١١٦) *نذكر بعض العلماء الذين استفاد منهم الجاحظ:* في ميدان علوم اللغة والأدب والشِّعر والرِّواية: أبو عبيدة معمر بن المثنَّى التميمي والأصمعي وأبو زيد بن أوس الأنصاري ومحمد بن زياد بن الأعرابي وخلف الأحمر وأبو عمرو الشَّيباني وأبو الحسن الأخفش وعلي بن محمد المدائني، وفي علوم الفقه والحديث: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي ويزيد بن هارون والسري بن عبدويه والحجَّاج بن محمد بن حماد بن سلمه بالإضافة إلى ثمامة بن الأشرس الذي لازمه الجاحظ في بغداد، وفي الاعتزال وعلم الكلام: أبو الهذيل العلاَّف وإبراهيم بن سيار النَّظَّام، مويس بن عمران، ضرار بن عمر، الكندي،بشر بن المعتمر الهلالي، وثمامة بن الأشرس النُّميري، وأحمد بن حنبل الشيباني. راجع: شارل بلا: الجاحظ، ص ١١٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، صفحات متعددة.

(١١٧) د.شارل بلّا ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ط ١ ،١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، (وهي نفس طبعة دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مكتبة المثني، بغداد، المكتبة الشرقية، بيروت، سنة ١٩٦١م ونفس ترتيب الصفحات) ، ص ١١٣.

(١١٨) د.شارل بلّا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٠٩(بتصرف).

(١١٩) القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي، فرق وطبقات المعتزلة، تحقيق وتعليق الدكتور علي سامي النشار، عصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية، مصر ،١٩٧٢م، ص٧٤، ولم أتمكن من معرفة أي شئ عن (ابن يزداد) الذي نقل عنه عبدالجبار هذه الشهادة، وفي هذه الحالة ينسب الرأي لمن استشهد به، ووضعه في كتابه على سبيل الإيجاب.

([١٢٠]) د.عباس أرحيلة، الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ، مطبعة الوراقة الوطنية، مراكش، ط١، ٢٠٠٤م، ص ١٨، ص٢١(بتصرف).

([١٢١]) راجع: أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، الباب الثاني: الثقافات في ذلك العصر– يقصد العصر العباسي–، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص١٥٧– ص٣٦٤ (بتصرف).

([١٢٢]) راجع: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٠٧، ص١٣٩ حيث يتكلم عن أثر الثقافة الفارسية – كمثال– في موسى بن سيار الأسواري(بصري وهو من العرب؛ وكان يجيد اللغتين العربية والفارسية، وكان يجلس في مجلسه العرب والفرس وكان يفسر لهما آيات القرآن باللغتين.

([١٢٣]) زهدي جار الله، المعتزلة، تقديم د.ألفرد جيوم، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، سنة ١٩٧٤، عن طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م، ص١٤٦ ومابعدها، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٣، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط ٢ ، ١٩٣٤م، ص٤٤، ص ٦٩–٧٢، جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تعريب: محمد يوسف موسى، علي حسن عبدالقادر، عبد العزيز عبد الحق نشر، دار الكتب الحديثة، مصر مكتبة المثنى ، بغداد، ص٩٠

([١٢٤]) ج . دي. بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، تحقيق: د.محمد عبدالهادي أبو ريدة، ط٥، دار النهضة العربية ، بيروت، سنة١٩٨١م، ص١١٢.

([١٢٥]) أبو الحسين الخياط (ت٣٠٠هـ)، الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد، تحقيق: د. نيبرج، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٢٥م، ص١٤٧، عبدالقاهر البغدادي الأشعري(٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق، القاهرة، سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، ص١٦٠–١٦١، محمد بن عبدالكريم

الشهرستاني(ت٥٤٨هـ)، الملل والنحل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م، ص٩٤-٩٨.

(١٢٦) زهدي جار الله، المعتزلة، مرجع سابق، ص ١٤٧-١٤٨.

(١٢٧) ج. دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص١١٣.

(١٢٨) كامل محمد عويضة، الجاحظ الأديب الفيلسوف، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٢١-٢٥.

(١٢٩) د.شفيق جبري، الجاحظ معلم العقل والأدب، محاضرات كلية الآداب، دمشق، سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، ص١١٦ .

(١٣٠) د.شفيق جبري، الجاحظ معلم العقل والأدب، مرجع سابق.، ص١١٦ وما بعدها.

(١٣١) شفيق جبري، الجاحظ معلم العقل والأدب، مرجع سابق.، ص ١١٧ وما بعدها.

(١٣٢) فيكتور شلحت اليسوعي، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، دار المعارف، مصر، ط ١٩٦٤، ص٢٣.

(١٣٣) التفتازاني، شرح المقاصد في علم الكلام، ج١، دار المعارف النعمانية، باكستان، ١٩٨١، ص ٤٨.

(١٣٤) ابن الجوزي(ت٥٩٧هـ)، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د.عبدالله التركي، ط٢، ١٤٠٩هـ ، دار هجر، القاهرة، الباب السادس والستون، ص ٤١٦-٤١٩، ص٤٨٢.

(١٣٥) هو أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي الهاشمي القرشي(٢٠٥ هـ /٢٤٧ هـ).

(١٣٦) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، ج٩، حققه وعلق عليه: أبو عبدالله جلال الدين السيوطي(المتوفي٩١١هـ/١٥٠٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ص٧٨-٧٩، الإمام جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، طبعة دار ابن حزم، ط١، سنة١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م، ص٢٧٤-٢٨٣، الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص١١٨، ابن الجوزي(ت٥٩٧هـ)، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، مرجع سابق، الباب الثالث والسبعون، ص٤٨٢-٥٠٦.

(١٣٧) الإمام السيوطي(ت٩١١ هـ)، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص٣٠٠-٣٠٦.

(١٣٨) ابن رشد(ت٥٩٥هـ)، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تقديم: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة١٩٩٨م، ص٢٩-٣٠، آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ترجمة: د.محمد عبدالهادي أبوريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٣٦٣ ، د. محمد عمارة(ت٢٠٢٠م)، العقلانية الإسلامية، ص٢٤-٢٧.

(١٣٩) الجاحظ، الحيوان،ج١ ، ص١٤٦، ج٦، ص٢٠٠-٢٠١، وقد توفى النَّظَّام سنة ٢٣١هـ.

(١٤٠) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص١٦٤ ومابعدها.

(١٤١) راجع: د. علي أبو ملحم، كشاف آثار الجاحظ، ط١، مكتبة ودار الهلال، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٠٦.

(١٤٢) حنين بن اسحق:(توفي في سامراء٢٦٠هـ /٨٧٣م) وهو عالم ولغوي ومترجم وطبيب ، عينه الخليفة المأمون مسئولا عن بيت الحكمة والترجمة ،عاصر تسعة من الخلفاء، وأصبح طبيبًا خاصًا للخليفة المتوكل. راجع: https://ar.wikipedia.org

(١٤٣) انظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ج١، ص٣٨٧، وسلمويه بن بُنان(ت٨٤٠م) هو طبيب مسيحي نسطوري من العصر العباسي عاش في القرن التاسع الميلادي، وأصبح الطبيب الخاص للخليفة المعتصم بالله(ت٢٢٧هـ/٨٤٢م)، وترجم أعمال جالينوس من اليونانية إلى العربية، وقد وثق به الخليفة لدرجة كبيرة، وبكى وصلى عند قبره بعد وفاته..، راجع: سلمويهhttps://ar.wikipedia.org ، الخليفة المعتصم بالله https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٤٤) عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٤٠، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص ٢٨٩.

(١٤٥) سورة الفجر، الآية رقم: ٥ .

(١٤٦) الجاحظ، الرسائل،ج١، ص١٤١، راجع: معجم المعاني الجامع: يربَئَهُ عَنْ حَاجَتِهِ: أي يحبسَهُ، ويمنعَهُ، ويصَرَفَهُ عَنْهَا https://www.almaany.com

(١٤٧) سورة: ق، الآية رقم: ٣٧، لفهم معنى الآية يجب ربطها بما قبلها، راجع: تفسير ابن كثير، ج٤، دار الفكر، بيروت، ص٢٥١، الزمخشري، الكشاف، ج٤، مرجع سابق، ص٣٩٠-٣٩١.

(١٤٨) راجع: معنى الاعتبار والتفكر في معجم المعني الجامع https://www.almaany.com

(١٤٩) الجاحظ، الحيوان، ج ٥، مرجع سابق، ص٢٢٨، ص ٢٨٧، ص٥٤٢-٥٤٣.

(١٥٠) أحمد موسى سالم، العقل العربي ومنهج التفكير الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٩٢ وما بعدها.

(١٥١) راجع: الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ج٥، مرجع سابق، ص٤١٦-٤١٨، ص٤٢٣-٤٣١، ص ٥٤٤(بتصرف وشرح)، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٦١٨.

(١٥٢) سورة النمل، الآية رقم: ١٨، راجع: الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٣٥٥.

(١٥٣) أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، ج٥، مرجع سابق، ص٥٤٤- ٥٤٥.

(١٥٤) الجاحظ، الحيوان، ج٥، ص٢٨٧.

(١٥٥) الجاحظ، الرسائل، رسالة المعاش والمعاد، ص٢٨.

(١٥٦) الجاحظ، الرسائل، رسالة المعاش والمعاد، ص٣٨٩.

(١٥٧)الجاحظ، الرسائل، رسالة المعاش والمعاد، ص٣٨٠.

(١٥٨) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص٢٤٩.

(١٥٩) الجاحظ، الرسائل، رسالة التربيع والتدوير، ص٢٦٧ .

(١٦٠) الجاحظ، الرسائل، فصل منه في تحليل النبيذ دون الخمر، ص ٤٣٩ .

(١٦١) الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، ج١، ص٤٤١.

(١٦٢) الجاحظ، الرسائل، ص٣٦٠ .

(١٦٣) راجع: أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٣٠٨.

(١٦٤) الجاحظ، الرسائل، ص٢٥٩

(١٦٥) المصدر نفسه، ص٣٠، الجاحظ، الحيوان،ج١، ص٢٢-٢٧.

([١٦٦]) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص٧٢-٧٥، ص٨٤.

([١٦٧]) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص٨٥.

([١٦٨]) الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص ٦٢.

([١٦٩]) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٣، ص١٣٨-١٤٠.

([١٧٠]) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص ١٦٦ وما بعدها.

([١٧١]) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص١٤٥.

([١٧٢]) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص١٤٣.

([١٧٣]) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص١٤٣.

([١٧٤]) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص٣٥-٣٦.

([١٧٥]) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص١٤٥.

([١٧٦]) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص١٤٥.

([١٧٧]) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٧، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ص٢٧.

([١٧٨]) *الجاحظ، الحيوان، ج٧، مرجع سابق*، ص١٠٨.

([١٧٩]) الغِياض هنا معناها الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف، راجع: مادة: (غاض يغيض غيضا، غياض) في المعاجم الآتية: لسان العرب، معجم المعاني الجامع، قاموس المعجم الوسيط ،اللغة العربية المعاصرة، الرائد ،القاموس المحيط https://www.almaany.com

([١٨٠])الجاحظ، الحيوان، ج٦، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، مكتبة وشركة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، ص١٢-١٣(بتصرف)، ص١٤، ص١٦-١٨.

([١٨١]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، تحقيق: عبد السلام هارون، مرجع سابق، ص١٩.

([١٨٢]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، تحقيق: عبد السلام هارون، مرجع سابق، ص١٣.

([183]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، تحقيق: عبد السلام هارون، مرجع سابق، ص١٤.

([184]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، مرجع سابق، ص٢٩.

([185]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، مرجع سابق، ص٣٤.

([186]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، مرجع سابق، ص٣٥-٣٦ (مواضع متفرقة). وسبق استشهادنا بهذا النص في موضع سابق، والنص هنا ليس من باب الخطأ والتكرار(الباحث)

([187]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، مرجع سابق، ص٣٦-٣٧.

([188])الجاحظ، الحيوان، ج١، مرجع سابق، ص٢٦، محمد كرد علي(ت١٩٥٣م)، أمراء البيان، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط٢، سنة ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٣٢١.

([189]) جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م، ص٧٧.

([190]) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج٣، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤، ص٥٨.

([191]) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ٢٠٧.

([192]) جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، ص ٧٧.

([193]) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص ١٠.

([194]) جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، ص ٧٨.

([195]) الجاحظ، الحيوان، ج ٤، ص ٢١١.

([196]) فيكتور شلحت اليسوعي، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ص ١٠١.

([197]) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص١٣٧.

([198]) الجاحظ، الحيوان،ج١، ص٧، فيكتور شلحت اليسوعي، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ص ١٠٤.

([199]) الجاحظ، الحيوان، ج ٤، مرجع سابق، ص١٠٩.

([٢٠٠]) الجاحظ، الحيوان ، ج ٦، ص ٣٥.

([٢٠١]) الجاحظ، الحيوان ، ج ٢، ص ١٢٦.

([٢٠٢]) الجاحظ، الحيوان، ج ٥، ص ١٣٦، ص ٢٤٨.

([٢٠٣]) الجاحظ، الحيوان، ج٣، إنكار الناس للغرائب، فقرة ٧٠٣، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، (نسخة المكتبة الشاملة الحديثة)، ص١١٥.

([٢٠٤]) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، فقرة ١٦٩٢: علة قلة الشكوك عند العوام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٣٣٦.

([٢٠٥]) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، نفس الفقرة ١٦٩٢، ونفس الصفحة، وماتحت الخط تصرف من الباحث في الشرح والتوضيح.

([٢٠٦]) الجاحظ، الحيوان،ج١، فقرة ١٩٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص١٦١.

([٢٠٧]) الجاحظ، الحيوان، ج ٣، باب القول في أجناس الذبان، فقرة ٧٨٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص١٥٦.

([٢٠٨]) الجاحظ، الحيوان، ج ٣، باب القول في أجناس الذبان، فقرة ٧٨١ نوادر للمكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص١٥٦.

([٢٠٩]) خلف الأحمر: هو أبو محرز خلف بن حيان من علماء البصرة في اللغة والنحو. توفي في حدود سنة 180هـ ، وكان راوية ثقة علاّمة، راجع: ويكيبيديا.

([٢١٠]) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي (١٢١هـ– ٢١٦هـ/ ٧٤٠ – ٨٣١ م) وكان راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، راجع: ويكيبيديا.

([٢١١]) الرجز هو: بَحْرٌ مِنْ بُحُورِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ وَيُسَمَّى حِمارَ الشُّعَراءِ لِسُهولَةِ النَّظْمِ فيهِ، وَبِهِ تُنْظَمُ الْمَنْظوماتُ التَّعْليمِيَّة...، راجع: معجم المعاني الجامع.

([٢١٢]) الجاحظ، الحيوان، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ ، ص٣٤٧.

(٢١٣) الأفوه الأودي: هو الأفوه بن عمرو بن مالك الأودي المذحجي (ت ٦٨ق.هـ/٥٥٥م) شاعر، ومن أشهر حكماء العرب. و ساداتها وفرسانها في الجاهلية، راجع: ويكيبيديا.

(٢١٤) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، باب الجد من أمر الجن، المحتجون بالشعر لرجم الشياطين قبل الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٤٥٩ .

(٢١٥) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، باب الجد من أمر الجن، المرجع السابق، ص٤٦٢.

(٢١٦)الجاحظ، الحيوان، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٢٨٦.

(٢١٧)الجاحظ، الحيوان، ج ٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٣٢٧.

(٢١٨) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٣٢٧.

(٢١٩) الجاحظ، الحيوان ، ج ١، فقرة ١٤٤، زعم أرسطو في النتاج المركب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص١٢٠.

(٢٢٠) الجاحظ، الحيوان، ج ١، فقرة ١٤٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص١٢١.

(٢٢١) الصَّحاصح الأماليس: هي الأرض المستوية الواسعة الملساء التي لا شجر فيها ولا كلأ ولا ماء، وهو إشارة إلى صعوبة العيش واستغلال الوقت في التأمل والتفكير، راجع: الجاحظ، الحيوان، ج٦، مرجع سابق، هامش ص٢٩(بتصرف وشرح).

(٢٢٢)الجاحظ، الحيوان، ج٦، مرجع سابق، ص٣٠-٣٢(بتصرف).

(٢٢٣) الدساس: جنس أفاعي غير سامة، تندس تحت التراب. تندرج تحت فصيلة الأصلة (باللاتينية: **Boidae**) التي تلد ولا تبيض، وهي ليلية المعيشة تعيش بشكل دائم تحت التراب، وكذلك تحت الصخور في المناطق الرملية. ويغطي جسمها قشور صغيرة ناعمة جداً مما يجعل منظرها لامعًا ويساعدها على الاندساس تحت التراب بشكل انسيابي. تتميز عيونها بأنها في أعلى الرأس وفتحات أنفها كذلك، لتستطيع إخراج العيون والأنف فقط لتترقب فرائسها، ومتى مارأت أيًا من فرائسها انقضت عليه وعصرته، وهي بطبيعتها تعصر فرائسها حتى الموت ثم تبتلعها بادئةً من الرأس.راجع: ويكيبيديا: مادة: دساس.

(٢٢٤)الحُفَّاث أو بيثون (الاسم العلمي: **Python**)، من اليونانية (**πύθων / πύθωνας**)، هو جنس من البيثون الغير سام تتواجد في أفريقيا وآسيا حتى وقت قريب، تم التعرف على سبعة أنواع

فقط، وبعد ذلك تم ترقية ثلاث منها إلى أنواع جديدة. وتعتبر الأفعى المشبكية التي هي أحد أعضاء هذا الجنس من بين أطول أنواع الثعابين والزواحف الموجودة في العالم، وهي تنفخ ولاتؤذي. راجع: معجم: عربي عربي، ويكيبيديا: مادة: الحُفاث.

([٢٢٥]) العِرْبِدُ: الحيَّةُ الخفيفة؛ تنفخ ولا تؤذي، وهي حية حمراء، راجع: معجم لسان العرب،ج١٠، حرف العين، ص٨٦.

([٢٢٦]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، مرجع سابق، ص٣٣.

([٢٢٧]) راجع: معجم المعاني، مادة: زَعَمَ.

([٢٢٨]) الجاحظ، الحيوان، ج٦، فقرة ١٧٩٨ صفة الغول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ، ص٤٢٦

([٢٢٩])الجاحظ، الحيوان ، ج ٣، فقرة ٧٥٦: نفور الذبان من الكمأة، ص١٤٧.

([٢٣٠])الجاحظ، الحيوان، ج٧، فقرة: ٢١٣٧، هياج الفيلة، مرجع سابق، ص١٠٩.

([٢٣١])الجاحظ، الحيوان، ج٤، فقرة: ١٠٦٥، مرجع سابق ، ص٣٣٥.

([٢٣٢])الجاحظ، الحيوان، ج١، فقرة ١٠٥، الزرافة خَلْقٌ مُرَكّب، مرجع سابق، ص٩٤-٩٥ نفس الفقرة.

([٢٣٣]) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص٩٤-٩٥ نفس الفقرة.

([٢٣٤]) الجاحظ، الحيوان، ج ٧، فقرة ٢١٠٥، أعاجيب الولادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٧٤.

([٢٣٥])الجاحظ، الحيوان، ج ٧، المرجع السابق، نفس الفقرة ونفس الصفحة.

([٢٣٦]) الجاحظ، الحيوان، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص ٢٢٧-٢٢٨.

([٢٣٧]) الجاحظ، الحيوان، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٢٢٨.

المصادر والمراجع

[مرتبة – حسب اسم المؤلف– بعد حذف أداة التعريف واللقب الديني واللقب العلمي، دون التقيد بسنة الميلاد أو الوفاة– ودون حذف (ابن ، أبو)لارتباطهما بشهرة العالم].

أولا: القرآن الكريم وكتب التفاسير وكتب الأحاديث

[١] تفاسير القرآن الكريم:

١) ابن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف (١٣١٨هـ-١٤٠٢هـ/١٩٠٠م-١٩٨١م)، أوضح التفاسير، ويقع في مجلد واحد، المطبعة المصرية ومكتبتها، ط٦، سنة ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م.

٢) ابن عباس، ابن قتيبة، مكي بن أبي طالب، أبو حيّان، المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم، إعداد وترتيب عبدالعزيز عز الدين السيروان، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٣) ابن كثير، الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٤) الإيجي(ت٩٠٥هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق د.عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٥) الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٦) المراغي، أحمد مصطفى (ت ١٣٧١هـ)، تفسير المراغي، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

٧) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين.

٨) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، أعدَّه مجمع الملك فهد وفقَ أصول التفسير وموارده الأصيلة، ط٤، المدينة المنورة، سنة ١٤٣٣هـ، وهو عدة أجزاء في مجلد واحد فقط.

٩) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج٧، ط١، دار الفكر العربي،١٩٨٧م.

١٠) الطبري(ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م.

١١) القرطبي(ت٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.

١٢) محمد رشيد رضا(ت١٩٣٥م)، تفسير المنار، خرج آياته وأحاديثه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

[٢] كتب السُّنَّة الشريفة:

١٣) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: ٢، ترقيم الكتاب موافق للمطبوع، وهو ضمن خدمة التخريج وهو متن مرتبط بشرح (السيوطي وآخرين) وبشرح السندي، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

١٤) أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)، المسند، بدون رقم الطبعة، مؤسسة قرطبة، مصر، د.ت، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

١٥) البخاري (ت٢٥٦هـ)، صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (طبعة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، سنة ١٤٢٢هـ.

١٦) الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي ، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج٤،٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م ، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء ، ترقيم الكتاب موافق للمطبوع، وهو ضمن خدمة التخريج ومتن مرتبط بشروحه: قوت المغتذي وتحفة الأحوذي والعرف الشذي، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

١٧) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) ، الجامع الصغير وزيادته، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، مع الكتاب: أحكام محمد ناصر الدين الألباني، هذا الكتاب الإلكتروني، يمثل جميع أحاديث الجامع الصغير وزيادته للسيوطي، مع حكم الألباني من صحيح أو ضعيف الجامع الصغير، وهو متن مرتبط بشرحه، من فيض القدير للمناوي]، الكتاب مرقم آليا، فهو – بهذا الترتيب – إلكتروني فقط، لا يوجد مطبوعا]، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

١٨) النووي، الإمام يحيى بن شرف النووي الدمشقي الشافعي (ت٦٧٦هـ) ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م عدد الأجزاء: ١،[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

١٩) النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) ، المستدرك على الصحيحين(جمع فيه الأحاديث التي اعتقد أنها صحيحة وعلى شرط الشيخين(البخاري ومسلم، أو على شرط أحدهما، ولم يروها الشيخان(البخاري ومسلم) في صحيحيهما، ولكن قاما بالتخريج لرواتها في كتابيهما)، دار المعرفة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨هـ، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

٢٠) مسلم (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دارإحياء التراث العربي، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

ثانيًا: كتب الجاحظ

(عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ):

٢١) البخلاء، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨٠م، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

٢٢) البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت الطبعة: الثانية، ١٤١٩ هـ عدد الأجزاء: ١ [ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

٢٣) البيان والتبيين، ثلاثة أجزاء في مجلد واحد ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م(١٥٢٣صفحة).

٢٤) الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون(ت ١٩٨٨م)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، عدة طبعات وعدة سنوات موضحة في كل هامش، واطلعت على نسخة أخرى وهي: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ ،عدد الأجزاء: ٧ [ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

٢٥) الرسائل السياسية، رسالة المعاش والمعاد المعروفة برسالة الآداب، تحقيق د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الحياة، بيروت، سنة ٢٠٠٢م، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

٢٦) الرسائل الكلامية، ضمن رسائل الجاحظ، تقديم وتبويب وشرح د.علي أبو ملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة ٢٠٠٢م ، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.
٢٧) المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـ ، [ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.
٢٨) المحاسن والأضداد، ط١، تصحيح: محمد أمين الخانجي، على نفقة الفاضل: علي رضا أفندي، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٤هـ.
٢٩) ثلاث رسائل للجاحظ، ط مكتبة دار الأرقم، بيروت، د.ت، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.
٣٠) ثلاث رسائل للجاحظ، تحقيق: يوشع فنكل، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٤هـ، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.
٣١) رسائل الجاحظ، الرسائل الأدبية، ضمن رسائل الجاحظ، تقديم وتبويب وشرح د.علي أبو ملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.
٣٢) رسائل الجاحظ، ج١، شرح وتقديم وتعليق: عبد الأمير مهنا، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨م.
٣٣) رسائل الجاحظ، ج٣، القسم الأول من الفصول المختارة من كتب الجاحظ، اختيار عبيد الله بن حسان، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٣٤) رسائل الجاحظ، ج٤، القسم الثاني من الفصول المختارة من كتب الجاحظ، اختيار عبيد الله بن حسان، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٣٥) البيان والتبيين، ثلاثة أجزاء في مجلد واحد، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ،[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.
٣٦) مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق: محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

ثالثًا: كتب التراجم، والطبقات والرجال والعلماء والمعاجم اللغوية وتاريخ الأدب والفرق والأصول:

٣٧) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري (ت٥٩٧هـ)، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د.عبدالله التركي، ط٢،، دار هجر، القاهرة، ١٤٠٩هـ.

٣٨) ابن خلكان، (قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر يكنى "أبا العباس" ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٧ أجزاء، سنة١٣٩٨هـ /١٩٧٨ م، ترقيم الكتاب موافق للمطبوع، وهوضمن خدمة التراجم، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة.

٣٩) أحمد بن إدريس القرافي شهاب الدين أبو العباس، شرح تنقيح الفصول في إختصار المحصول في الأصول، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٣٢١(بتصرف وشرح).

٤٠) أحمد مختار عبدالحميد عمر(ت١٤٢٤هـ) وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب،١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٤١) البغدادي، عبدالقاهر البغدادي الأشعري(٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق، القاهرة، سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

٤٢) التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت ٧٩١هـ) ، شرح المقاصد في علم الكلام، جزءان، دار المعارف النعمانية، باكستان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١.

٤٣) الخياط، أبو الحسين ، عبد الرحيم بن محمد بن عثمان (ت٣٠٠هـ)، الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد، تحقيق: د. نيبرج، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٢٥.

٤٤) الراغب الأَصْفَهَاني (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م) ، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٤٥) الزركلي، خير الدين (ت١٩٧٦م)، الأعلام، قاموس تراجم، ج٢، دار الملايين، بيروت،١٩٨٦م.

٤٦) الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني(ت٥٤٨هـ)، الملل والنحل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٧) الفيروزآبادي، مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي(ت ٨١٧هـ) ، القاموس المحيط، والقابوس الوسيط، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط، مؤسسة الرسالة،١٤١٠هـ.

٤٨) الكفوي، أبو البقاء (ت١٠٩٣هـ)، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مكتبة مشكاة الإسلامية، عن نسخة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٤٩) عبدالجبار، القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي، فرق وطبقات المعتزلة، تحقيق وتعليق الدكتور علي سامي النشار، عصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية، مصر،١٩٧٢م.

٥٠) كحالة، عمر رضا (ت١٩٨٧م)، معجم المؤلفين، ج٣، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.

٥١) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

٥٢) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري (ت٥٩٧هـ)، كتاب الأذكياء، طبعة شركة نوابغ الفكر، د.ط ، د.ت.

٥٣) ابن النديم(ت٣٨٤هـ)، الفهرست، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

٥٤) ابن منظور(ت٧١١هـ)، لسان العرب، ج١١، ط١، دار صادر، بيروت.

٥٥) الجرجاني، علي بن محمد بن علي الشريف الحسني (ت٨١٦هـ)، التعريفات، مكتبة مشكاة الإسلامية، د.ت، بدون رقم الطبعة، باب الشين، مادة: الشك.

٥٦) جرجي زيدان(ت١٩١٤م)، تاريخ آداب اللغة العربية، ج١، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

٥٧) حنا الفاخوري(ت٢٠١١م)، تاريخ الأدب العربي، ط٦، بيروت، د. ت.

٥٨) مجمع اللغة العربية، قاموس المعجم الوسيط، ط٥ منقحة، مكتبة الشروق الدولية، د.ت.

رابعًا: كتب تناولت الجاحظ وفلسفته وأدبه وفرقته:

٥٩) ابن رشد(ت٥٩٥هـ)، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تقديم: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة١٩٩٨م.

٦٠) أبو الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد المعتزلي(ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه،ط١، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م .

٦١) أحمد موسى سالم، العقل العربي ومنهج التفكير الإسلامي، ط١،٢٠١٤م، دار الوفاء، الإسكندرية.

٦٢) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ترجمة: د.محمد عبدالهادي أبوريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، القاهرة، ١٩٥٧م.

٦٣) جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، طبعة دار ابن حزم، ط١، سنة١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

٦٤) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات ، حققه وعلق عليه: أبو عبدالله جلال الدين السيوطي(المتوفي٩١١هـ/١٥٠٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.

٦٥) بدر الدين الزركشي(ت٧٩٤هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، ٦ مجلدات، تحقيق: عبدالقادر عبدالله، مراجعة: عمر سليمان الأشقر، ط٢، وزارة الأوقاف، الكويت، ١٤١٣هـ،١٩٩٢م.

٦٦) ج . دي. بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، تحقيق: د.محمد عبدالهادي أبو ريدة، ط٥، دار النهضة العربية ، بيروت، سنة١٩٨١م.

٦٧) جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م.

٦٨) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تعريب: محمد يوسف موسى، علي حسن عبدالقادر، عبد العزيز عبد الحق نشر، دار الكتب الحديثة، مصر مكتبة المثنى ، بغداد، ص٩٠

٦٩) شارل بلَّا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ط١،١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، (وهي نفس طبعة دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مكتبة المثني، بغداد، المكتبة الشرقية، بيروت، سنة ١٩٦١م ونفس ترتيب الصفحات.

٧٠) عباس أرحيلة، الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ ، مطبعة الوراقة الوطنية، مراكش، ط١، ٢٠٠٤م.

٧١) زهدي جار الله، المعتزلة، تقديم د.ألفرد جيوم، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، سنة ١٩٧٤، عن طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م.

٧٢) شفيق جبري، الجاحظ معلم العقل والأدب، محاضرات كلية الآداب، دمشق، سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.
٧٣) علي أبو ملحم، كشاف آثار الجاحظ، ط١، مكتبة ودار الهلال، بيروت، ١٩٨٧م.
٧٤) فتحي رضوان، الإسلام والإنسان المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م.
٧٥) كامل محمد عويضة، الجاحظ الأديب الفيلسوف، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٧٦) محمد أركون، الفكرالعربي، ترجمة: د.عادل العوا ، ط٢ ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة ١٩٨٢م.
٧٧) محمد كرد علي، أمراء البيان، ج٢، ط٢، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٤٨م.
٧٨) أحمد أمين، ضحى الإسلام ، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط ٢، ١٩٣٤م.
٧٩) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ثلاثة أجزاء في مجلد واحد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
٨٠) فيكتور شلحت اليسوعي(ت٢٠٠٦م)، النزعة الكلاميّة في أُسلوب الجاحظ، ط٣، دار المشرق، بيروت،١٩٩٢م.
٨١) محمد عبد المنعم خفاجي(ت٢٠٠٦م)، أبو عثمان الجاحظ، دار الطباعة المحمدية، الأزهر، القاهرة، ط١، د.ت.